الأيدي الدافئة

مجموعة قصصية

تأليف

جمعة محمد جمعة

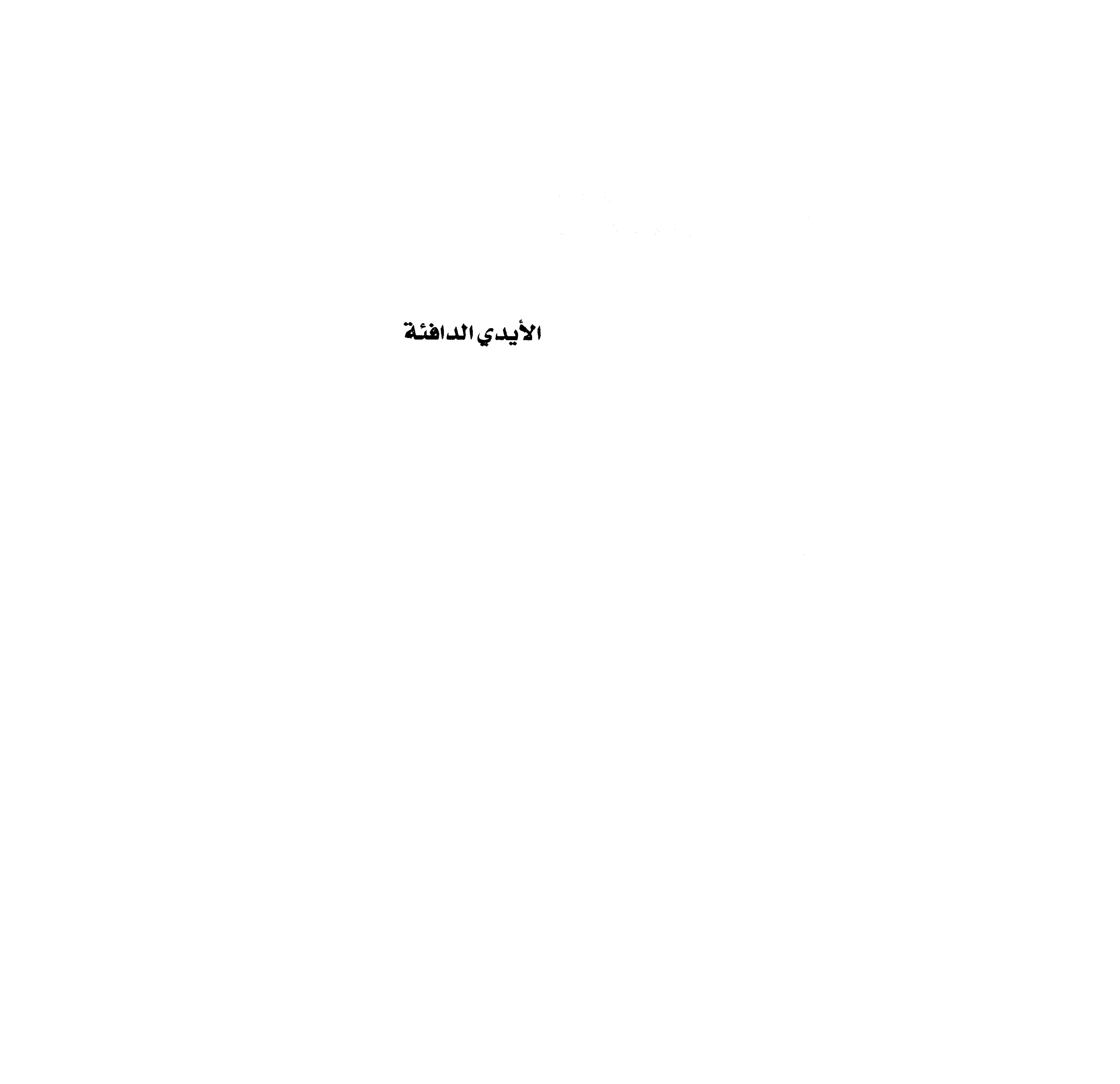


دار زويل للنشر

اسم المؤلف : جمعة محمد جمعة
عنوان الكتاب : الأيدي الداهنة
إخراج داخلي : دعاء غريب
مراجعة لغوية : دعاء غريب
الناشر : دار زويل للنشر
الطبعة الأولى : ٢٠٠٠
رقم الإيداع : ٢٢٢١ /٢٠٠٠
الترقيم الدولى : ١ - ٣١ - ٥٩٠٥ - ٩٧٧

دار زويل للنشر

٧ ش البستان ـ ميدان التحرير
ت : ٥٧٩٦٠٦٠ - ٥٧٩٨٠٩٨
E.Mail: Zaweell@hotmial.com



الأيدي الدافئة

الغلاف إهداء من
الفنان / مكرم حنين

إهداء

إلى الأرض الطاهرة

التي أعيش فوقها

أرض مصر

جمعة

عندما يعبر الفن عن قضايا الإنسان

يعرف "أرسكين كالدويل" القصة القصيرة بأنها حكاية خيالية ذات معنى ، مشوقة بحيث تثير انتباه القارئ، عميقة بتعبيرها الصادق عن الطبيعة الإنسانية .

وصديقي جمعة محمد جمعة كاتب له إسهاماته في القصة القصيرة والرواية والمسرحية، فهو مبدع متمرس إذن، وأهم ما يميزه قدرة طيبة على ملاحظة ظواهر الحياة المجتمعية، ونسجها في إبداعات تعكس وعيًا وبراعة في الالتقاط والسرد.

إن القصة عند جمعة ليست وسيلة للتسلية، ولكنها تعبير - بالفن - عن قضايا مهمة .

وبداية، فإن المدينة - والحي الشعبي غالبًا - هي المكان الذي تدور فيه أحداث قصص هذه المجموعة، ومعظم

الشخصيات ينتمون إلى الطبقتين الوسطى والدنيا. والأسرية: الزوجة والزوج والأبناء والجد والجدة والأعمام والأخوال.. إلخ، هي السمة التي تطالعنا في القصص جميعًا (في قصة "دقات ساعة العمر" تصوير للحظات رحيل الأب بعد أن أدى رسالته نحو أبنائه). المشكلات أسرية ومجتمعية، بينما تتوارى المشكلات السياسية في الخلفية، أو أنها لا توجد. المشهد الأوضح لبشر، ناس من زمننا، يحيون ويعانون ويطمحون ويأملون. في قصة "رعشة قلب" كان البطل ينتظر فتاته في الكافيتريا حين بدأت في حياته قصة جديدة هي قصة حبه لنوال، لكن الحب لم يكن ما تطلبه الفتاة، إنما كانت تطلب الوظيفة لنفسها، ولصديقة لها، وعلى الرغم من أن العائدين من بلاد الغربة يشكون من سوء المعاملة، ومن ضعف الأجور، فإن فكرة السفر لا تغادر أذهانهم.

وقد قرأت الكثير من الأعمال الإبداعية التي تجد في السفر إلى بلدان النفط والمال وسيلة للتغلب على الأزمات المادية، رغم كل ما يحيط بالتجربة من سلبيات، ولكن قصة "الأيدي الدافئة" تلح في أن تظل البطيخة في لبشتها، فيقرر محمد أن يظل في وطنه بتشجيع من أماني - خطيبته - "أنا معك لخمس سنوات أخرى. لا تحمل همي". وفي قصة "الغرق" يتحقق ما تمناه الزوجان في بداية حياتهما، لكن الثمن كان فادحًا، اقتنينا الغسالة، والثلاجة، والتليفزيون، والبوتاجاز، والمكنسة، والمكيف، وواجهنا الأمراض - في المقابل - وواجهنا المتاعب والخلافات، حتى بين الأبناء. "نبذنا حياة الأهل البسيطة الهانئة الوادعة الميسرة، نبذنا الهدوء والسكينة، اشترينا بحبات عرقنا الضجة والضجيج، المرض والأسقام".

ويناقش الفنان العلاقات الأسرية المتفسخة، ثمة الأب

الذي يفرض وصايته على بناته "كيف يفكر حماي؟ أمازال ونحن على أبواب القـرن الواحـد والعـشـرين، هناك تلك العادات والتـقاليد؟ أمـازال يوجد في المجـتمع الأب الذي يتحكم في مـصير بناتـه؟ لقد تغيـر البشر، وتغـير الزمن، وبقى بعض الأزواج متـمسكين بديكتاتوريتـهم في بيوتهم، مع زوجـاتهم أو بناتهم" (قـصة : عـصفـور الحب ودائرة الموت). وتذكرنا قصة "غيوم في السماء" بحكاية الأخوين الفرعونية الشـهيرة ـ أعتبرها البدايـة في فن القصة إطلاقًا ـ فالصديق المخلص لصديقه يحـاول الفرار من مطاردة حبيبة صديقـه ـ زوجتـه فيمـا بعد ـ التي تؤمن بـأن الحب أسهل الأمور وأكثرها شـيوعًا، وأن الحب شئ والزواج شئ آخر، وأن القلب يهوى الصفات وإن تعددت في أكثر من واحد. الراوي/ الصديق متزوج، فتحاول المرأة أن تصل بمحاولاتها إلى بيته. تحاول أن تبـذر بذور الشك في قلب زوجته، فلا

تفلح، وتواصل محاولاتها، وتبعث إلى زوجها في بلاد الغربة تعلن حبها لصديقه. وإذا كان الأخ الأصغر في حكاية الأخوين قد رفض محاولات الغواية من زوج أخيه الأكبر، وإذا كان النبي يوسف قد أفلح في النجاة من إغراءات زوج العزيز، فإن الراوي - هنا - يرضخ لحبها في النهاية، ويرضخ كذلك الصديق الذي تصارحه الزوجة بحبها لصديقه. أما الراوي في قصة "السقوط من الدور العاشر" فينتمي إلى بيئة فقيرة، لكنه فعل المسموح والممنوع حتى استطاع أن يحقق ذاته، وأهمل أسرته، حتى نسيها ونسيته (ونتذكر العشرات من وصوليّ الرواية المصرية: محجوب عبد الدايم، وحميدة، ويوسف عبد الحميد السويفي وغيرهم) ثم يفيق إلى نفسه بعد أن يُذَكِّرَهُ منافسه في العمل بماضيه، ويطرده من مكتبه: كيف ارتضى لنفسه أن يحيا الفرع بعيدًا عن جذوره الراسخة في الأرض؟

ورغم المأساة التي دفع ثمنها سواه، فإنه يعود في النهاية إلى أبويه، وإلى أسرته الصغيرة. وفي قصة "مجهول الهوية" يصارح الأبناء أباهم بأمنيتهم في أن يموت، فيذكرهم بأن أبناءهم سيفعلون بهم ما يفعلون به (ذكرتني هذه القصة بالحكاية الشعبية العُمَانية عن أب تقدم في السن، فحمله ابنه، ووضعه داخل مغارة مهجورة ليقضي آخر أيامه، وقبل أن ينصرف الابن سأل أباه عن الابتسامة التي علت شفتيه. قال الأب: تذكرت أني فعلت بأبي ما تفعله أنت بي الآن!) ولكن التعاطف الإنساني يبين عن قسمات واضحة عندما يبادر الراوي إلى نقيض ما فعله أبناء الأب الشيخ .

ونحن نتعرف إلى ملامح وظلال وأصداء لمغادرة المصريين بلادهم إلى بلاد الغربة سعيًا وراء المورد المادي الذي يتجاوزون به معاناتهم المادية .

وفيما عدا بطل قصة "السقوط من الدور العاشر"، فإن

التواضع يؤطر أحلام شخصيات الفنان، ثمة من ينتهي أفق أمانيه في امتلاك ساعة (الساعة)، وثمة من يجد في تربية الأبناء تأدية كاملة لرسالته، ومن يضع القرش على القرش، يستغني عن المهم من أجل أن يصبح بيته صالحًا لسكنى البشر، حتى الطعام يدعي الأبوان الشبع حتى يأكل الأبناء فيستطيعون استيعاب المذاكرة. (الساعة)

هذه قضايا محلية، تقدم لنا شخصيات نلتقي بها في مألوف حياتنا، لكنها تصدر عن أبعاد إنسانية مطلقة في الوقت نفسه. وإذا كان العالم النفسي هانز ساكس يرى أن العمل الأدبي حلم اجتماعي، فإن لوكاتش يذهب إلى أن الإنتاج الأدبي والأيديولوجي، جزء لا يتجزأ من العملية الاجتماعية العامة.

ويجاوز الفنان المحيط الأسري والمجتمعي إلى قضايا الإنسان بعامة، فهو يدين جناية البشر على أنفسهم، وعلى

العالم: "الدنيا تغيرت. عمرنا ما رأينا المطر في أمشير، نسميه شهر الزعابيب. أما المطر فينزل في برمهات. اعلم يا ولدي أن ذلك من عبث البشر في الفضاء: قنابل ذرية، صواريخ، أقمار صناعية. لوثوا أرض القمر وأحالوا جماله إلى تراب". بل إن الفنان يبدي ملاحظات على التقدم الذي حققه الإنسان، فهو يتمنى عودة الأيام الخوالي بلا مستحدثات علمية، ولا تكنولوجيا، أيام الغسيل بالأيدي، وإعداد الخبز في البيت، ويزيد فيدعو زوجه لتشرب من القلة، وتستخدم موقد الكيروسين واللمبة نمرة خمسة، وتفتح النوافذ للتعود على الذباب والناموس، والقعود أمام طشت الغسيل .. إلخ (قصة: الغرق)، ولكن الراوي ما يلبث أن يتخلى - في الحقيقة - عن كل ما يهمس به لنفسه، عندما يتبيَّن أن سيارته تخلو من البنزين، فهو سيضطر لأنْ يهلك قدمه في المشي. فالراوي إذن غير مقتنع بما يدعو

إليه. التقدم العلمي أقوى من أمنياتنا المُحلِّقة في الرومانسية. وفي قصة "عصفور الحب ودائرة الموت" يتداخل البحث عن الحرية الشخصية، والبحث عن حرية العصفور. كان الراوي محبوسًا في الحجرة، وكان العصفور في الحجرة أيضًا "أرى في العصفور نفسي". "و مدت حبيبتي يدها واحتضنت يدي، وكنت قد فزت بالموافقة على الخروج إلى الحياة مع حبيبتي، وشعرت بنسيم الحرية يداعب وجهينا، وأنا أرى في العصفور الميت حقبة من حياتي عشتها سجينًا قد ولت، وولد عصفور الحب من جديد ليغرد، ويملأ الدنيا غناء" (قصة: عصفور الحب ودائرة الموت). ومع ذلك فإن الراوي كان يجد في مجرد خاتم الزواج قيدًا على حريته.

أنت تستطيع أن تميز كاتبًا عن آخر بمدى تفوقه في تطويع خصائص العمل الإبداعي، كاللغة، والشكل، والموقف،

والدلالة، والتقنية، وغيـرها مما يختلف به كاتب عن آخر، إيجابًا وسلبًـا. واللافت في قصص المجموعـة ذلك التعدد لأساليب السرد واستخـدام الضمائر، والتداخل في الأزمنة والأمكنة. بالإضـافة إلى لجـوء الفنان إلى أسلوب القـصة داخل القصـة، وهي فنية عـربية مثلهـا الأشد اكتـمالاً هو "ألف ليلة ولـيلة". ولجـوئه - في أحـيـان أخـرى - إلى ضربات الفـرشاة في تصوير المشـهد القصـصي، لا يتوقف أمام التفـصيلات الصغـيرة، وإنما يذكرنا بتوقـيع فان جوخ وإنجي أفلاطون في العديد من لوحاتهما.

والبسـاطة التي يتسم بهـا السرد في هذه القـصص، قد تصرف قارئها عن الدلالات التي تتضمنها، ولكن البساطة - وربما الوضوح - بساطة خداعة. واللغة الشعرية - في تقدير كوسيريو - ليست مجرد استعمال لغوي من بين استعمالات أخـرى، إنما هي اللغـة في بسـاطتـهـا. واللغـة في هذه

المجموعـة تميل إلى البساطة والعفـوية، وتخلو من المفردات الزائدة. كل جملة وكلمة وحـرف لها دورها الذي تفيد منه القصة، يخدم سـياقها، ولا يجني عليها التـرهل. إنها لغة فنية وعملية في آن. ثمة تعبيرات أبانت عن جمالية أسلوبية كقـول الفنان "وجهـه صافحـته الشـمس ملايين المرات".

وتأملت القـول الذي أفـاد فـيـه الفـنان من المجـاز بفنيـة عالية: "ضربنا في دروب الزمان بخطواتنا سنين عددا. أخذ إعجابنـا - خلالها - بالشمس يفـتر، حتى فقـدنا الإحساس بها. لم يعد سطح البيت يضمنا شتاء تحت أشعتها الدافئة. لم نعد نرى القمر اللامع في قبة السماء إلا صدفة. أخذت حياتنا تتعقد حتى صـارت رزمة من العقد" (قصة الغرق). (بالمناسبـة : لماذا كتب الفنان "مـحل تهذيب الشـعر" ولم يقل "الحلاق"؟ قصة الساعة).

ولعلي أشير إلى فصحـى الحوار - وهو ما حرصت عليه

المجموعة ـ فأنا أرفض العامـية في الحوار ـ دعك من عامية السرد، فهي اجتراء ساذج، أو سذاجة جريئة! ـ لأنها ـ من ناحيـة ـ توسع قاعدة القراء لكل الكتـاب العرب، في كل أقطارهم؛ ولأنها ـ من ناحية ثانية ـ تمثل اتجاهًا لمحاربة لغتنا القومية، سواء بقصد، أو بميل ـ حسن النية ـ للمخالفة !

هذه المجموعة تضم قصـصًا تنطلق من البساطة، ولكنها أبعـد ما تكون عـن التسطيح، أو عـدم سـبر الجـوهر، أو إهمال فنية القصة في أحدث معطياتها .

إنه عالم حقـيقي يستند إلى دعامات من القـراءة والخبرة والممارسـة، فالمبدع لا يتّكئ على إبداعـات الآخرين، ولا يمتح منها، ولا يحاول المحاكـاة ولا التقليد، إنما هو يحاول التعبير عن خصوصية في التجربة المضمونية والفنية في آن.

محمد جبريل

جلست في صمت أرقب عامل الورشة يصلح سيارتي، الطريق مزدحم، سيارات، مشاة، صخب، ضجيج، الهواء يمتلئ بالدخان، السماء تختفي تحتها السحب حبلى بالماء، الهواء بارد، تطل الشمس بين الحين والحين تؤجج شوقي لدفئها المفقود.

أخرجني من تأملي الصامت صوت طري:

- تسمح لي يا ابني أقعد.

- تفضل يا حاج.

تفرست ملامحه، عشرات السنين تعلن عن نفسها فوق

جبهته المجعدة، وجهه صافحته الشمس ملايين المرات، كسته رداء السمرة اللامع، يده اليسرى ترفع ما بين ساقيه تحت البطن مباشرة.

قاطعني صوته الواهن:

- لمؤاخذه يا ابني، عندي فتاق.

ساق مبرراً بغيره، قبلت قعوده، رثيت لشيخوخته ومرضه:

- شفاك الله.

- مررت بالأمس على كل الصيدليات كانت مغلقة.

- كان يوم الأحد.

زبد البحر يطل ويختفي في زوايا فمه، شفته السفلى متضخمة بارزة كنتوء في جبل، الفجوة التي يدخل فيها الطعام، ويخرج منها الكلام جرداء، التفت ناحية اليمين وأشرت قائلاً:

ـ الصيدلية المجاورة مفتوحة.

بدأت أذني تعي كل ما يقوله بصوته الطري دون الميل برأسي نحو فمه:

ـ صاحبها حرامي، بلا ضمير، باعني منذ أيام شيئًا يشبه الكابوريا وبلا حزام.. شئ يستخدم لتدلي الخصية لا للفتاق، كيف أشد هذا الشئ على الفتاق دون حزام، استعوضت الله في ثمنه ورميته.

العجوز لا يشعر بالبرد، رأسه تحت طيات الكوفية الصوف الرمادية ينعم بالدفء، يغطي جسده، فوق الملابس الداخلية جلباب من الكستور وجاكت، توقعت أن يطلب معونة بين لحظة وأخرى، الزبد على جانبي فمه يتراقص:

ـ ذهبت إلى المستشفى معي خطاب توصية من الدكتور، الفتاق يحتاج إلى جراحة، أحالوني إلى الباطنة، في الباطنة قالوا: "لا نتحمل مسئولية موتك".

أبي يقتـرب من الخامـسة والستين، يـخشى الموت، كَلَّ بصره، ذهب إلى الطبيب يطلب إجراء عمليـة مياه بيضاء ـ هرب من إجـرائها وهو في الأربعين ـ الطبـيب يرأف بسنه ويسوفه، كل زيارة نوع جديد من القطرة، يعرف أبي، لكن الأمل بين جوانحـه كالحب بين جـوانح الشباب، لـم يعـقه المطر آخر مرة وذهب متلحفًا بالكوفية والبالطو.

عادت عيني العجوز بعد جـولة في السماء المعتمة بعض الشيء، وقال:

ـ لا يعرف الأطباء أن المكتوب تراه العين.

نفر عرق في جبهتي، خشيت أن يجد إلى جواري راحته الأبدية بعـد كل تلك السنـين، فكرت أن أمنحـه ما فـيـه النصيب لينصرف، صرف عني خواطري واستطرد قائلاً:

ـ يُحْكَى أن رجلاً تاه في الطريق، أظلمت السماء، وجد نفسـه في حيرة أنقذه منهـا عابر، عرض استـضافتـه حتى

الصباح، دخل الضـيف حجرة مظلمة من حـجرات البيت الريفي لينام، تناهى إلى سمعـه صوت زوجة المضيف وهي تتـألم، عرف فـيه آلام المخـاض، رأى الملائكة تملأ البـيت بالنور، وولادة طفل، حياته حتى سن الزواج، ثم هب من نومه واسـتعـاذ بالله، وضوء النهـار يغمـر الحجـرة، أسر الضيف الحلم في نفسه، وقال لصاحب الدار :

ـ بما رزقك الله؟

ـ غلام .

ـ أمتأكد أنه غلام؟

غمغم الضيف، شرد بصره قليلاً ثم قال لمضيفه:

ـ سأضع أمانة في عنقك، عـندما يشب غلامك، وحين يحين مـوعـد زفـافه، أرجـوك أن تدعـوني لحـضـور هذا الزفاف. .أنا من قرية. . .

ودَّع المضيف ضيفه، وأحس بالأمانة كطوق الحمامة حول

رقبته.

مرت الأعـوام، شب الغلام، واختيـرت له العروس، وحان موعد الزفاف، شعر الأب بقرب التخلص من الطوق حول رقبته فرحل إلى القرية، سأل عن الرجل ولقيه، دعاه للحفل وعـاد مخفـفًا كالريح النسيـمية، توجـه المدعو إلى "سـوق الحـدادين"، طلب من الحـداد صنـع سكين بطول الذراع، وشحذها كالسيف، انتهى منها الحداد وأعطاها له، توجه المدعو إلى الحفل.

دخل المدعـو والسكين مخـتفـية تحت إبطه، سـأل عن العريس فقيل إنه يأخذ حمامه، طلب الدخول إليه، تعجب الداعي لكنه نزل على رغبة المدعـو، وأدخله، كان العريس يقف في الطست، تجمد للحظة. قال له أبوه:

- هذا الرجل شهـد ليلة مولدك وطلب أن يحضـر حفل زفافك. أتمم حمامك.

عاد الرفاق يمزحون مع عريس الليلة، وفجأة انشقت الأرض عن حية تخرج من بطنها، وتتجه نحو العريس. استل المدعو سكينه ومزقها قطعًا قطعًا، تناثرت قطعها داخل الحجرة، هاج الرفاق، كما هاج المدعوون، التفوا حول المدعو يكيلون له المديح والثناء، يتبركون بلثم يده، تساءلوا في تعجب:

ـ أكنت تعرف؟

قال المدعو:

ـ أجل. لقد حمّلت أبوه أمانة دعوتي.

قص المدعو حلمه الذي رآه ليلة ميلاد الطفل، تأكد الناس أنه رجل مبارك، عادوا إلى التبرك به، والمسح على ملابسه، ولثم يده.

انتهى العريس من حمّامه، فَرِحَ بنجاته، وفرح أكثر بعروسه، أخذ في ارتداء ملابسه، نثر العطر عليها، ارتدى

الجورب، دسَّ قـدميـه في الحذاء، صـرخ صرخـةً واحدةً وسقط مـتكوِّمًا، انـقلبت الفرحـة إلى حزن، أخـذ المدعو يقلب الجسد الهامد، خلع عنه ملابسه وفتَّشَها، خلع حذاءه وأخرج مـنه رأس الحيـة أمام الأعين المبـهورة، قال المـدعو ممجدًا اسم الله:

ـ اللهم لا اعتراض ولا مانع.

التقط العجوز أنفاسه وقال:

ـ يعني إذا كان لي عمر ولا مائة عـملية تميتني. الأطباء يخافون. كفر.

قلت والدهشة من قصته تملأ صدري بالإيمان:

ـ سبحان الله.

قال:

ـ عمري ثلاثة وسبعون عـامًا، يعني امتلأت من الدنيا، يهـــمني ألا أتألم، ولا يهـــمني الموت، عندي ثـلاثة أبناء

تزوجوا جميعًا ويعيشون معي.

ثم تطلع إلى السماء وقال :

ـ الدنيا تغيرت، عمرنا ما رأينا المطر في أمشير، نسميه شهر الزعابيب، أما المطر فينزل في برمهات. اعلم يا ولدي أن ذلك من عبث البشر في الفضاء: قنابل ذرية، صواريخ، أقمار صناعية، لوثوا أرض القمر وأحالوا جماله إلى تراب.

عبث العجوز بجيوبه، خرجت علبة السجائر وورقتين قدمهما إليّ:

ـ خطاب التوصية، تذكرة المستشفى، انظر عندك التحويل من الجراحة إلى الباطنة، لهم الله.

قرأت الورقتين بعيني، عرفت أنه "عزيز رزق"، لاحظت ثنائية الأديان فيه، قدم لي سيجارة امتنعت قائلاً:

ـ لا أدخن.

قال في إصرار:

ـ خذ، كله من عند الله.

رددت يده مصممًا، انتفت من ذهني فكرة منحه ما فيه النصيب، أعطيته الورقتين، دسهما مع علبة السجائر في جيبه وقال:

ـ عندي مرض في القلب، ألا يكفي ألم الفتاق، الحزام مهم جدًا؛ لأنه يرفع الأمعاء فلا يؤلمها تجمع البول بالمثانة، لا أراك الله الألم.

أخذ يشد الأنفاس من السيجارة، اكتشف أنه لم يشعل ذؤابتها، كدت أخرج قداحتي لأشعلها له، توقفت يدي وعامل الورشة يقول:

ـ مفتاح السيارة.

أخرجت المفتاح من جيبي، انتهى العجوز من إشعال سيجارته، عادت يدي إلى جيبي ثانية تعبث بالنقود

الورقية.

قال العجوز:

- أبنائي لا يرحمون شيخوختي، لا أنال منهم سوى السب والشتم، يقولون:

- نسيك الموت لتتعب قلوبنا.

أقول لهم:

- لكم أولاد سيفعلون بكم ما تفعلون بي. يزومون، يتبجحون، لا يقدرون قيمة دعاء الأم أو الأب في الكبر.

طوت يدي ورقة مالية، أخرجتها ودسستها في يده، رد يدي بعنف وقال:

- لم أقصد استدرار عطفك وإحسانك، جلست فقط لأستريح.

ماتت يدي في يده، وبعد إلحاح صامت تناول ما في يدي، وضعه في جيبه، على استحياء قال:

- سأذهب إلى صيدليات الميدان، ثم أدور مع الشارع الآخر إلى بيتي.

تابعت خطواته، يده اليسرى ترفع ما بين ساقيه، الرقم سبعة يرتسم على الأرض من طرفي حذائه، يميل قليلاً إلى الأمام، نظرت لحظة إلى السيارة الدائرة، تابعته حيث سار لأنادي عليه وأوصله إلى الميدان، أحبط اختفاؤه رغبتي، هاجت زعابيب أمشير وملأت عيني بالتراب.

رغم مضي ما يزيد عن الساعتين لم يلحظ أحد منا العطب الذي أصاب النافذة الوحيدة في حجرة مكتبنا، فضوء لمبات "النيون" الأبيض يجعلنا نشعر بعدم افتقاد ضوء النهار. كانت "شيش" النافذة عبارة عن ستارة من شرائط خشبية "حصيرة"، وكانت ساقطة بسبب انقطاع الشريط الذي يستخدم في رفعها وإسدالها.

لاحظنا هذا العطب ونحن نستمع إلى صوت عصفور يرن في فضاء الحجرة، تطلعنا بحثًا عنه، حجرة مكتبنا واسعة، جدرانها عالية، يبرز قرب سقفها إفريز صغير

كمظلة للمبات "النيون".

أشعر تحت هذا السقف العالي بإنسانيتي. بينما يصطدم رأسي بسقف الحجرة في البيت. بالأمس كدت أختنق، والموت يدنو ويدنو، فمنذ بضعة أشهر وأنا حبيس الملل والروتين، أستيقظ، أذهب إلى العمل، أعود ظهرًا، لا أبرح البيت إلا في صباح اليوم التالي. وتمر أيام العطلات الرسمية والأجازات مرورًا عابرًا، لم أكن معتادًا هذه الحياة، طوال ما يربو على الخمسة عشر عامًا، فكرت في الفرار من هذا السجن، ولكن كيف ذلك ونصفي الآخر - حبيبتي - حبيسة؟

تطلعت عيوننا إلى العصفور يقف في أحد أركان الحجرة فوق الإفريز يهزُّ رأسه في حيرة.

قالت سميرة متألمة:

- يا حرام.. عصفور حبيس.

قالت زهرة وهي تنظر نحـو حسنين أثناء وضعه الـقهوة فوق مكتبي:

ـ ارفع الستارة يا حسنين، العصفور سيجن .

قال حسنين:

ـ حاولت مساعدته على الخروج ولم أفلح.

شغلت بالتـفكير في مسـاعدة العصفـور على الفرار من سـجنه، فـالحريـة هي حيـاته ووجـوده، وبدونهـا يموت، بالأمس كنت مـثلـه، كدت أجـن وأنا أتطلع إلى جـدران حجـرتي الضيـقة، شـعر رأسي مـتصلب كـأسنان المشط، الصداع يحطـم رأسي بما تحوي من أفكار وخواطـر، يخيل لي أن القفز من الشرفة فيـه خلاص روحي الحبيسة المعذبة، تسألني حبيبتي:

ـ ماذا بك يا حبيبي؟

قلت وأنا أرى في وجـهها الحدْب والحنان على نفـسي

الممزّقة:

- لاشئ.

تلح عليّ في السؤال وأصرخ في غضب:

- روحي الحبيسة تموت موتًا بطيئًا، لم أعد أحتمل هذا العذاب. لا أستطيع النوم، فقدت شهيتى للطعام، صحتى فى تدهور مستمر.

وأتركها وأطل من الشرفة وأردد:

- ها هى الحياة بين الناس، أما هنا فالموت، أريد حريتى.

تقول في حزن:

- ماذا أستطيع من أجلك؟

وأرد عليها متألماً:

- لا أستطيع أن أجد حريتى بدونك، لا أستطيع أن أبقى معك فى هذا السجن.

واستغرقت فى التفكير وأنا أضرب جبهتى بيدى قائلاً :

ـ لابد من حل. لا بد من حل.

تركتنى وذهبت لتعد لى فنجاناً من القهـوة، وأنا أقترب شيئاً فـشيئًا من الفكرة التى أجد فيـها بعض الراحة. قلت فى نفسى "لم لا أحصل على حريتى بعقد القران؟" هللت الفرحـة فى صدرى، وجدت فى تنفيـذ هذه الفكرة حريتى التى عشت طوال عمرى أنعم بـها، منذ أدركت شبابى وأنا أحمل على عاتقى مسئوليتى عن نفسى، نفض أبى يده منى وأنا فى الثالثة أو الرابعة عـشرة من عمرى، وتركني أسلك طريقى فى الدراسة ثم العمل، ثم فى الزواج أخيرًا.

جـاءت حبـيبـتى تحـمل لى فنجانًـا من القهـوة ، قلت والسرور يبدو على وجهى :

ـ ما رأيك لو عقدنا القران؟ سنحصل على حريتنا .

قالت :

- وهل تظن أبي يوافق؟

قلت:

- وماذا يمنعه من الموافقة؟ إنني أبحث عن راحتي النفسية، وإلا مت حبيسًا.

رفعت زهرة صوتها قائلة :

- يا حرام العصفور سيموت جوعًا.

قلت أكثر إشفاقًا على العصفور:

- الجوع لا يؤدي إلى الموت، وإنما فقدان الحرية هو الموت بعينه.

قالت سميرة:

- لا شك أنه حبيس منذ أمس.

نهضت واقفًا ، وأطفأت لمبات " النيون "، بدت الحجرة كأنها واقعة في ظلال بناء شامخ ، وضوء الشمس يدخل إليها من فرجة صغيرة، تقع أسفل الستارة،

والعصفور يلف ويدور مع جدران الحجرة أشبه بمجنون فقد عـقله، وكلنا يحدثـه في صمت "أخـرج، الضوء أسـفل الستارة سبيلك إلى الحرية. . أخرج".

واسـتمـر الحـال بعض الوقت ، الحـجرة سـابحـة في الظلال، وضوء الشمس يـسقط أسفل الستارة، والعـصفور يدور في جنون متنقلاً من ركن إلى ركن .

قالت سميرة :

ـ ابحثوا عن عامل لإصلاح الستارة، لن يعرف العصفور طريقه إلى الحرية إلا بعد رفعها .

أضأت النور وعدت إلى مكتبي، انكمش العـصفور فوق الإفريز .

قالت زهرة غاضبة:

ـ ياله من عصفور غبي.

وعقبت وهي تمصمص شفتيها:

- لن يخرج من هنا حيًا .

قلت وأنا أفتش عنه:

- بذلنا ما في وسعنا.

استقرت عيناي على الستارة المسدلة، وأنا أرى في العصفور نفسي.

قلت لوالد حبيبتي:

- إنني إنسان عشت حياتي في النور حرًا طليقًا . . .

قاطعني قائلاً :

- ماذا يمنعك أن تكون حرًا طليقًا ؟ أعرف أنك عشت تمتع نفسك مع أصدقائك.

قلت :

- هذا حق. كنت حرًا وحدي، أما الآن فهذا خاتم ابنتك في إصبعي يحمّلني مسئولية كبيرة. لست أنانيًا، ولست كاذبًا، أضع على عاتقي مسئولية إسعادها، لا

أحتمل أن أشعر بالسعادة في أي شئ لا تشاركني فيه، سواء أكان طعامًا أم شرابًا، نزهة أم حفلاً، سرورًا كان أم حزنًا.

عرضت فكرة عقد القران، وفي داخلي أتعجب، كيف يفكر حماي؟ أمازال ونحن على أبواب القرن الواحد والعشرين هناك تلك العادات والتقاليد؟ أمازال يوجد في المجتمع الأب الذي يتحكم في مصير بناته؟ لقد تغير البشر، وتغير الزمن، وبقى بعض الأزواج متمسكين بدكتاتوريتهم في بيوتهم، مع زوجاتهم، أو بناتهم.

مازال حماى يفكر بعقلية الجيل الذى ذهب إلى حال سبيله، مازال يخيط بناته بالجدران ظنًا أن فى ذلك حماية لهن، لا يعرف أنهن قادرات على مواجهة الحياة بمفردهن.

أفرغت ما في جعبتى من غضب وثورة، فمنذ إقامة حفل الخطوبة وأنا أقيم بينهم فردًا من عائلتهم، لا يباعد بينى وبين حبيبتى شئ، ماذا يخيفه لو ترك لنا حريتنا؟

ينـــعلل بالخـــوف من كـلام الناس، وهـل الناس الآن فى سكوت؟ يخـشى لو نلنا حريتنا وخـرجنا معًـامرة، ومرة، ومـرات أن أفكر فى الانفـصال عنهـا يومًـا مـا، ويتقـول الناس.. ألا يخـشى أن يحدث ما يخـافه الآن مـثلاً، أو غدًا، بعد شـعورى بعذاب ووطأة فقـد الحرية على روحى وضياع نفسى، ألا يخشى تقوُّلَ الناس ساعتئذ بما هو أكثر؟ لكنى وطَّنت نفسى أن أتعـامل مع الناس حسب أفكارهم، وسبيلى إلى راحـة نفسى وحصولى على حـرِّيَّتى فى تفكير حماى، عقد القرآن. لن يضـيرنى عقد القرآن فى شئ، بل سيـفيدنى كـثيرًا، يكفى شـعورى بالحرية، أفـرغت ما فى جعـبتى من قـرف وضياع ، وشـعرت بالرّاحة تـتسلل إلى صدرى، فمن أجل حبيبتى يهون كل شئ .

دلف حسنين ووضع القهوة لثلاثتنا، أنا وزهرة وسميرة، كأنـنا فى مأتم دون اتفـاق، وأذهاننا مع العصـفور المتـعلق

بالسقف، لائذًا خائفًا يظن أننـا نعمل على اصطياده وقتله، ليست لديه القدرة على استيعاب ما فى صدورنا من مشاعر الحزن والألم، ولا يفهم ما قلناه مـنذ الصباح من كلمات، لو عرف وفـهم أن ما يشـغلنا هو حريتـه التى فقـدها منذ أمس، لهبـط عن طيب خاطر فى راحـة يدى أو راحة يدى زهرة أو سميرة، ولسـاعدناه جميعًا على النجـاة بحريته من داخل السجن الذى نخشى جميعًا أن يصير قبرًا داخله.

ذاعت قصة العـصفور فى الإدارات المختلفـة، وامتلأت أسماع الموظفين بحكاية العصفـور الحبيس فى حجرتنا، كل من يدخل يسأل:

ـ ألم يخرج العصفور ؟.

ونجيبه :

ـ لم يخرج. سيموت المسكين.

عرفنا مـن حسنين أنه فى السـادسة والنصف من مـساء

أمس وضوء النهار يولى الأدبار، انتهى من تنظيف الحجرة، ثم اتجه إلى النافذة ليسدل الستار، تناهى إلى سمعه بعد إسدالها صوت العصفور، حاول رفع الستارة ثانية لإخراجه، وفجأة هبطت دفعة واحدة معطبة، وكان الظلام قد عم الكون.

قَرُبَ يوم العمل على الانتهاء. فشلنا فى استدعاء عامل لإصلاح الستارة التى لم يتسنّ لنا إصلاحها قبل يومين أو ثلاثة، فكرت زهرة أن تكسر له قطعة بسكويت وتتركها له فوق أحد المكاتب، ابتسمت سميرة لفكرتها الساذجة وقالت:

ـ يبدو أنه مات، لا صوت له.

عدت إلى البيت وأنا أشعر بأن العصفور قد قايضنى على عمرى، بدلني العمر. واستمرارًا لحديثى مع أسرة حبيبتى قصصت ما حدث للعصفور، ورأيتهم يتألمون وهم

يرددون:

ـ يا للعصفور المسكين.

مدَّت حبيبتي يدها واحتضنت يدى، وكنت قد فزت بالموافقة على الخروج إلى الحياة مع حبيبتى، وشعرت بنسيم الحرية يداعب وجهينا، وأنا أرى فى العصفور الميت حقبةً من حياتي عشتها سجينًا قد ولَّت، وولد الحب من جديد ليغرد ويملأ الحياة غناء.

كل ليلة حين أسكن فى فـراشى، تلوث زفراتـى الحارة هواء الغرفة، تسألنى زوجتى:

ـ ما بك؟

أقول ردّى المعتاد:

ـ إنى أغرق.

تتنهد فى تبرم وتغمغم:

ـ موال كل ليلة.

ـ خائف عليك يا هبة، أخشى غدر الزمان.

تولينى ظهرها قائلة :

- حسك فى الدنيا، ربنا يطول عمرك، تصبح على خير.

أقول مغمغمًا:

- غدر الزمان غير مرتبط بعمرى ، يمكن حدوثه وأنا حى .

ثم عقبت ردأ على صمتها :

- تصبحين على خير.

الخير ذكرى عاطرة، منذ نعومة أظافري وكل خطوة فى حياة أبى مرتبطة بالخير، حين يدق بابنا يقول "اللهم اجعله خير، افتح الباب يا ولد"، حين يناديه أحدنا "أبى".

يقول فى تلقائية "خير يا ولدى"

تركنا أبى ونحن رجال أشداء، الآن، كل منا رب أسرة، كان زواجى من هبة عن حب، أول ليلة ضمتنى إلى صدرها فى حنان قائلة:

ـ أنا معك قلبًا وعقلاً، لا تحمل للدنيا أي هم.

ضحكت ليلتها وقلت مداعبًا:

ـ أي هم يا حبيبتى، إننا فى بحبوحة والحمد لله، رباط بيننا من الحب والمودة، لا أخشى عواصف الزمان مهما كان جبروتها.

ثم رنوت إليها بعينين صادقتين مكملاً:

ـ مادمت معى.

ضربنا فى دروب الزمان بخطواتنا سنين عددًا، أخذ إعجابنا ـ خلالها ـ بالشمس يفتر حتى فقدنا الإحساس بها، لم يعد سطح البيت يضمنا شتاء تحت أشعتها الدافئة، لم نعد نرى القمر اللامع فى قبة السماء إلا صدفة. أخذت حياتنا تتعقد حتى صارت رزمة من العقد.

أنفاس هبة تتردد، فى بطء، فى اضطراب، يستكين الشقاء طول النهار، وفى الليل يغتالها، مسكينه يا هبة، ربة

بيت ممتازة، نشقى أكثر من شقائي فى العمل ، بيتنا أشبه بملعب لكرة القدم، كلٌّ يجرى فى اتجاه، الهدف إقلاق راحتى، وراحتها - بقصد أو بغير قصد - إنهم الأبناء.

تراك الكثيرات منعمة يا هبة، لديك الغسالة، الثلاجة، التلفاز، البوتاجاز، المكنسة، المُكَيِّف، فَلِمَ لا يكون بيتك واحة راحة، لدى زوجك السيارة، فلم لا تكونين فى قمة السعادة، فليأت هؤلاء يا هبة، إنى مستعد لمنحهم الإقامة شهرًا فى هذه الواحة، ماء الثلاجة يؤلم معدتك، عيناك أرهقهما التلفاز فوضعت "النظارة" التى وارت ملامحك الجميلة، المكيِّف أصاب الصغير بالتهاب رئوى، الضجيج ثمنه الصحة، هذا يسمع المسجل بموسيقاه الراقصة، ذاك يرفع صوت التلفاز ليعكر مزاج الأول، الثالث يلعب الكرة فى الردهة الضيقة، الرابع يشاكس عصافيره لتصرخ بالغناء، أنا وأنت نجرش الزلط حتى لا يقف عثرة فى الحلقوم،

يكفى أن تنقطع الكهرباء يوما واحدًا لتنكد حياتنا لمدة أسبوع، فما بالنا وهي تنقطع لمدة يومين لتصلنا يومًا، والماء أصبح كالقضاء، نصحو فلا نجد فى الصنابير نقطة توحد ربها على طرف اللسان.

فليأت هؤلاء يا هبة، سأسلمهم ميزانية بيتنا، هذا يحب الفسيخ، ذاك لا يأكل إلا المكرونة، الثالث لديه هوس بالفاكهة، الرابع ولد على شاطئ النيل، وعقد اتفاقًا أبديًا مع الأسماك، الجميع على اتفاق في شئ واحد، شكة الدبوس يلزمها جراح، وعكة المعدة يلزمها أشعة، الإرهاق من اللعب يلزمه رسم قلب، الهدف هو إرهاقنا ـ بقصد أو بغير قصد ـ إنهم أولاً وأخيرا أفْلاذُ الأكباد.

أعتقد يا هبة أننا نستوفى عذابنا فى الدنيا، وإلا فما هذا الذى نحن فيه؟ نبذنا حياة الأهل البسيطة، الهانئة، الوادعة، الميسرة، نبذنا الهدوء والسكينة، اشترينا بحبات

عرقنا الضجة والضجيج، المرض والأسقام، كانت أمى "رحمها الله" تُشَمِّرْ عن ساعديها أمام "طِشْت" الغسيل بالساعات، تقوم كالجمل لتعد طعام الغذاء، تقوم فى الخامسة لتعد طعام الإفطار، تعجن وتخبز وتعد لنا شطائر الخبز الساخن بالسمن والسكر، وفى كل حين تدعو الله ألا يحرمها متعة هذا الشقاء، وأن يزيد أفراد البيت ولا ينقصون.

مابالنا اليوم يا حبيبتى، دائمًا تصرخين من ألم فخذيك لساعةجلستها مقرفصة لتنظيف زوج من الطيور، تشعرين بالإرهاق لمجرد الاستيقاظ فى التاسعة صباحًا، الصداع ورأسك فى رباط إلى أن تحين الساعة، أنا لا ألومك يا هبة؛ فكلانا فى هذه الدنيا سواء، يسرى في حياتنا مبدأ جديد، كلما قلَّت قيمتك فى الهيئة الاجتماعية، أتخمت جيوبك بالمال، تستفزنى علبة السجائر العالمية فى جيب

منادى السيارات، يحترق دمى فى طوابيـر السجائر، الخبز، الأرز، الصـابون، اللحـوم، الكستـور، يذل أبدانى عـامل الكهرباء، أو النظافـة، وأى عامل فى أى حرفـة من الحرف التى استحوذت على نتاج العصر المالى.

الآن يا هبة، بل قـبل الآن بقليل، طفح الكيل، فاضت الهمـوم ولا شطآن تنجى من المهالك، بين بـحبوحـة زمان وضنك الآن فـوهة بركان ابتـلعت آدميـتنا، إنسـانيتنا، مـا نحصل عليه يكاد يكفينا غدًا، أعدِّي لنا القلل القناوى رغم ندرتها، فـتِّشى عن سمكرى ليـصلح لنا مواقـد الكيروسين واللمبات نمرة خمسة ونمرة عـشرة، افتحى النوافذ والأبواب لنعتاد على الذباب والناموس، ولتذهب أبداننا الحساسة إلى الجحيم، درّبى نفسك على القرفصة أمام "طشت الغسيل"، أفسحى مكانًا بالسطح لنبنى فيه "الفرن"، أما أنتم يا أولاد الزمن الـ .. من لايدع عنه هواه، ويقـبل حـياتنا المقـبلة،

فليرحل، كلكم رجال، كل يعتمد على ذاته، وإلا فالموت أولى به.

أصابت جانب بدني الممدد لكزة، تنبهت بسرعة وهبة تقول:

- لماذا تصرخ؟

اعتدلت مندهشًا:

- أنا صرخت.

قالت:

- أيقظني صراخك.

تطلعت إلى النافذة، غادرت الفراش مغمغمًا:

- هيّا أعدي لي الشاي.

قالت وهي ترنو بعينين شبه ناعستين للساعة في معصمها:

- مازالت السادسة.

قلت في استياء وغضب:

ـ هيا يا هبة. ليس بالسيـارة بنزين، سأهلك اليوم قدمي في المشي!.

ترددت كثيـرًا أن أفاتحه في الأمر، عليّ أن أبـسط أمامه بوضـوح موقـفي. لست ممن يسعـون وراء اقتناص أماني الناس، يؤلمني كـثيـرًا أن أتسبب له في صـدمة قـد تبعـثر سنوات عمره المقـبلة، قد تبدد شقاء عمر الـغربة، قد تهد بنيـانه الذي يحافظ عليـه بالغـذاء الجيـد، والعناية الطبيـة المركزة، والراحة اللازمة.

خـامـرني هذا الإحـسـاس وأنا في طريـقي إلى المطار لاستقباله حين أهلَّ من صالة الوصول، كنت أول من تلقاه بالشوق الجارف، والقبلات الأخوية الحـارة، أما صفاء فقد

دفعتهـا أمها دفعًا لتضع يدها في يده، سمعـتها تقول ـ بلا أدنى رغبة في النطق ـ حمدًا لله على سلامتك.

انسلخت من الركب ومـضيت إلى بيـتي أحمل هـمه، أحس بالمأساة كـأنها مأساتي، وبالألم كأنـني أكابده، وماذا بعـد يا رجـب؟ هل وصلتك رسـالتـي؟ لم ألحظ ذلك في أسارير وجهك، ولم أشـعر بأي فتور في مشـاعرك. وماذا بعد يا صفاء؟ أشعر وكأنك قد أعددت القنبلة لتفجيرها.

لكم عـانيت بسـبـبك يا رجب، فـأنت صـديقي الذي أحب، ولست بالذي يهـدم مثل هذه الصداقـة المثلى، لكم تألمت بسببك يا رجب وأنا أراك كل يوم تزداد شغفًا وافتنانًا بصفـاء. كانت تتعمـد إطلاعي على كل رسائلك، تتعـمد الجلوس إليّ بالساعات وسط الزمـلاء والزميلات، أحاطت بي إحاطة المصيدة بالفراشة. قبل أن تراها يا رجب، كانت تلميـحاتها لي صـريحة، فالحب في عُـرفها أسـهل الأمور

وأكثرها شيوعًـا، ومبدؤها القاتل: الحب شيئ والزواج شيئ آخر، وفلسفتها المدمـرة: القلب يهوى الصفات وإن تعددت في أكـثـر من واحـد. في البـدء كنت أنوي أن أوضح لك شخـصيتـها، ميولهـا، لكنك أجبرتـني على الصمت حين قلت: "سـأتزوجهـا ولو انطبـقت السمـاء على الأرض". ترددت يومـهـا أن تظن بي الظـنون، أنا الذي لا أظن بك سوءًا نحوي. يومهـا قلت لنفسي : "عسى أن يمنَّ الله على قلبهـا وعقلها بالسكـينة والهدوء". كنت أشد فـرحًا منك لأنك سـعيـد بارتباطك بهـا، وهرولت الأيام وسافـرت. رضيت بشقاء الغـربة حتى تتمكن من إتمام الزواج، وإيجاد عش الزوجية من العدم، وتنبأت لكما خيرًا.

تعمَّـدتْ إحراقي يا رجب، زاد اقتـرابها مني أكـثر، في جعبـتها لكل كلمة مـائة معنى وأكثر، تعـمدت زيارة بيتي وزرع بذور الشك في قلب زوجتي، أرادت تدميري في عقر

داري، ما منعني من إلقائها خارجًا إلا وفائي لك، وحرصي على صداقتك، لكن عناية الله ردت السهام إلى صدرها، لم تئن، ولم تتألم، بل اندفعت إلى إثارتي، فردت أجنحتها وطارت تحط في أي مكان، تلقي برأسها على كتف أي إنسان، وجدتني مضطرًا لوقف جموحها بملاحقتها أينما ذهبت، وأينما جلست، امتلأت أفواه الزملاء والزميلات بالحديث عنا. أترى يا رجب ما عانيته من أجلك ؟

ترددت كثيرًا أن أكتب إليك؛ فأنا أعرف رهافة قلبك، وأقدر معاناتك في الغربة، وأعرف جيدًا كم مرة فكرت في الانتحار لمجرد أنك تحب. حبك لنجوى التي كانت تحب أخيك محمود وخُيِّل إليك أنها تحبك. أتذكر حبك لسحر التي تعتنق دينًا غير دينك، ودفعت بأسرتك لطلب يدها وكان موقفًا غاية في الأسى. إنك لم تعرف صفاء يا

رجب، ولن تعرفها ما حييت، لقد ضربتنا - أنا وأنت - بحجر واحد، ضربتك في رأسك فأسالت منك الدماء فقط، وضربتني في صدري ومازال الحجر يؤلمني.

أتعرف ماذا حدث قبل مجيئك؟

جاءتنى برسالتك التى حددت فيها موعد عودتك، وضعتها أمامى كعادتها وقالت :

- اقرأها قد تجد فيها ما يهمك.

وبعد قراءتى لها قلت:

- إن شاء الله نفرح بزواجكما.

قالت ساخرة وهى تولينى ظهرها:

- إذا نبت للبنت لحية.

والأكثر من ذلك ما قالته لى فى إصرار أكثر من مرة:

- أريدك أنت ولو شقيت العمر كله.

قلت ذات مرة:

- ماذا تتمنين لى يا صفاء؟

قالت على الفور:

- موت زوجتك.

قلت:

- معاذ الله.

صرخت فى وجهى محنقة، مختنقة بالدموع:

- أنت خطيئتى فى دينى ودنياى، أنقذنى قبل أن أرتكب تلك الخطيئة.

صديقى رجب. ماذا تفعل لو كنت مكانى؟ لن أجد الجواب قطعًا لأننى لم أسألك بعد.

كانت تلك السنوات الأربع طويلة جداً يا رجب. أرجو ألا يدهشك ما تغيّر فيها من أمور، فلعلك أنت نفسك تغيرت ولا تشعر، المهم الآن أن أعترف بين يديك أننى استسلمت، لا تندهش، لقد وجدنا أمامنا طبق الفول فى

الإفطار طوال سنين الدراسة، فاستسلمنا له، حتى الآن، رغم تغير الحال، والسعة فى الرزق، لقد استسلمت وعليك أن تعذرنى، إنها لا تحبك، ولن تتردد فى أن تطلقها قذيفة فى وجهك.

لقد سقطت صريعًا حين طلبنى رئيسي ذات يوم، وقال فى استياء :

- ياصلاح، الحلال بيِّن والحرام بيِّن، والحلال للرجل مثنى وثلاث، والحرام أن تلوك سيرتكما الأفواه، إن ما بينك وبين صفاء حديث الساعة وكل ساعة، أمامك خياران، إما أن تتزوجها، وإما سأضطر إلى نقلك لفرع آخر.

قل لى يارجب ماذا تفعل لو علمت أن فروع الشركة: الإسكندرية، بورسعيد، أسوان.

ليس خافيًا عليك أن لكل واحد من البشر جنة ونار، أما

أنا فمن نصـيبى جنتين ونارين، بالله عليـك لا تتركنى فى ضياعى.

صدقنى يا رجب إنـك ما أحبـبت، ولا عرفت الحب، إننى أحب زوجتى وطفلى، وأحب صفاء وعملى، إنك لو أحببت صـفاء ما تركتهـا يومًا، بل لحظة، إنك لا تحب إلا نفسك. أخشى ما أخشاه أن يقال عنا "فرقت بينهما فتاة"، قد يحدث هذا، وأنا أتوقعـه، إنني أحبك كصديق، وأحب صفاء كـفتاة، لقد أنبتت السنوات بيني وبينهـا حبًا له طعمٌ خاص، ولون خاص جـدًا، إنني أتعذب يا رجب، لك أن تتصورها في أحلامي، لك أن تراها متقـمصة هيئة زوجتي في غـدوها ورواحهـا، جلوسـها واضطجـاعهـا، لك أن تـصـورها كـائنًا حـيًـا مـعي في كـل لحظة وكل مكان، لايستطيع أحدنا - برضاه أو رغـمًا عنه - تحطيم ذلك القيد، قد تقول يا رجب إنها رغبة امرأة في التملك. أنا أخالفك،

لقد التقينا وحدنا أكثر من مرة في أمكنة كان مباحًا لها أن تتملكني ولم يحدث، حتى عندما دارت برأسينا القبلة هبّت قائلة: "حذار يا صلاح، أريد أن أزف إليك بكرًا، أو إلى الملائكة في السماء". في تلك اللحظة بالذات امتزجت روحي بروحها.

لا تنظر إليّ يا رجب تلك النظرة القاسية، إنني لا أريد لك الشقاء حتى لو رضيت به لنفسك، ليس سهلاً أن تعيش معك صفاء بلا روح، بلا قلب، بلا عقل، أصدقني فأنا أصدقك القول في كل شئ. إن ما أبغيه هو النأي بك عن تلك النيران الحارقة التي أكابدها، قد تقول: "لماذا أحتملها؟"؛ إنني مستقر في بيتي مع زوجتي وطفلي، هذا يهوّن عليّ، أما أنت فلن تجد الاستقرار يومًا في حياتك، خاصة إذا ـ معذرة يا صفاء، لابد من مواجهته بالحقيقة. اغفري لي ـ خاصة إذا علمت أن المرأة في داخلها ناقصة في

النمو، قد تكون زوجة ناجحة، ولكن لا شئ غير ذلك، فالأرض في داخلها من الجرانيت لا تصلح للإنبات.

دق جرس الباب وأنا في مجلسي لم أتحرك، فتحت زوجتي، تناهى إلى سمعي ترحيبها وتهنئتها لرجب بالعودة، دفعت به إلى غرفتي فأخرجني من دوامتي، دعوته إلى الجلوس وقد شعرت بما يعانيه، اختلاجات هدبيه، تورد وجنتيه بحمرة الغضب، قلت مندفعًا:

- مابك ؟

قال وهو يشعل سيجارة كانت بين إصبعيه:

- أريد فك ارتباطي بصفاء.

قلت على الفور وأنا أضع يدي فوق جبهتي:

- هل وصلتك رسالتي الأخيرة؟

- كلا. لم يصلني شئ منك منذ شهرين.

رنا إليّ ثم قدم سيجارة قائلاً:

ـ معذرة . . نسيت .

ثم أردف :

ـ هل فيها شئ هام؟

قلت

ـ كلا . أسأل فقط للاطمئنان .

قال :

ـ سأجدها حين أعود . المهم الآن فك ارتباطي بصفاء .

قلت :

ـ بلا أسباب . هل هناك فتاة أخرى؟

ـ كلا . ولكن هناك حقائق كلانا يعرفها .

قلت متلعثمًا :

ـ حقائق . أية حقائق؟

قال :

ـ ستعرفها بنفسك .

ثم أخرج عدة صفحات مطوية قدَّمها إليّ:

ـ اقرأ هذه الصفحات.

ألقيت نظرة وجلة سريعة، التهمت خلالها سطور الصفحات ملمًّا ببعضها، قافزًا فوق بعضها الآخر، وحين انتهيت سألني:

ـ هل قالت الصدق في هذه الحقائق؟

قلت آسفًا:

ـ أجل. هو نفس ما كتبت لك في رسالتي التي لم تصلك. والآن ماذا أنت فاعل؟

قال وهو يضحك ويدس يديه في جيوب سرواله:

ـ أنا . . في السفر عدة فوائد. قلبي معك أنت.

أعلنتني العقارب بمضي نصف ساعة، تطلعت ناحية مدخل "الكافيتريا"، ثم عاودت النظر إلى قرص الساعة المستدير، ولكني لم أعرف شيئًا.

كنت معها على موعد، جئت مبكرًا، أكره أن ينتظرني أحد، فما بالي إذا كانت هي، اليوم عيد ميلادها، عرفته يوم قمت باستخراج شهادة ميلاد لها (مستخرج) لتقديمها - ضمن الأوراق - للوظيفة الجديدة.

أقبلت فتاة واتخذت مجلسها قريبًا مني، تشبه أخرى أعرفها، آه، تعرفت إليها في حفل عام، وحين عرفت

بوظيفتي انتحت بي جانبًا وقالت:

ـ هل أجرؤ في طلب خدمة؟

قلت متلعثمًا، وقد باغتني سؤالها بعد التعارف مباشرة:

ـ تحت أمرك.

أخذت تقص عليّ قصة صديقتها، والظروف الصعبة التي تمر بها، والتعب من الانتظار الطويل للوظيفة، ومن الجري وراء سراب الإعلانات عن وظائف شاغرة، ثم أردفت:

ـ هل تقدم يد العون لهذه الفتاة؟

قبل أن يأخذني التردد الذي اعتدته في هذه الأحوال، قلت:

ـ سأعمل ما في وسعي، التوفيق من الله.

وصارت رابطة صداقة وأخوة، امتدت أواصر التواصل، نتلاقى أحيانًا، نتحادث هاتفيًا، وتحدد لقاء قدمتني فيه إلى

نوال، وتوقفت طويلاً مع نفسي قبل التورط.

في البدء، لم أحاول قط الإعلان عن وظيفتي، فالمؤسسة التي أعمل بها ذات سمعة، واسمها يتردد على كل لسان، يجري محررو الصحف وراء الأخبار، عرف عن موظفيهم أنهم صفوة أبناء المجتمع خبرةً وعلوَّ شأن، وأنها تعمل في النطاق الدولي على قدم واحدة مع الدول، والحكومات، ولها كيانها المستقل.

كنت أرى ما يقدمه زملائي من خدمات لأقاربهم، ومعارفهم، بينما أتقاعس عن خدمة أي صديق، أو قريب، أنظر أولاً بفكر ثاقب، ماذا سيعود علي من تلك الخدمة؟ لا شئ، وإنما ستفتح الباب لمزيد من الخدمات، أجد نفسي ملكًا مشاعًا بعد أن كنت ملكًا متوجًا، قد تجر عليّ غضب البعض، واستياء البعض الآخر، أرى أيضًا بعض العواقب، قد تتسرب بعض خصوصيات العمل ويشار إلى أنني

السبب، قد يتباهى من أخدمه بما يتميز به، ويوغر صدور من امتنعت عن خدمتهم لسبب أو لآخر، وقد.. وقد.

أسأل نفسي مرارًا وتكرارًا: "لماذا أبديت الاستعداد لمساعدة نوال؟"، بل واندفعت أساعدها في إعداد أوراقها، واستلمت العمل وها هي تطلب اليوم لقائي دون إبداء الأسباب.

قالت عبر الهاتف:

- أريد اللقاء معك لأمر هام.

وها أنا أنتظر قدومها.

كان نومي مؤرقًا طول الليل، أتساءل: لماذا تريدني؟" لقد تخلصت بصعوبة من آثار اللقاءات السابقة، وفي الليل تحرك القلب الساكن، تنوعت خفقاته، اتسعت حدقتي عيني، ارتسمت صورتها كما لم ترتسم أية صورة من قبل في مخيلتي، تناوبت هي وأعباء العمل إقلاق نومي، قلقلة

راحتي، إنهاك ذهني، إثارة القلاقل في دورتي الدموية، نوال فتاة رائعة، شجاعة في حياء، قوية في خجل، صوتها ترنيمة جوقة تصحبها موسيقى ناعمة، وجهها لوحة لو تناولته ريشة فنان لارتفع إلى عنان السماء مجدًا وشهرة، قوامها تحار الألباب في توصيف بنيانه، أينما التقينا أرى العيون حولنا كجوقة تنشد شعرًا ونوال هي قيثارة العزف.

خرجت في الصباح على عجل، وقد انتهى بي الحال إلى اكتشاف خبايا قلبي، استقرت نبضاته على ترنيمة حب ولد منذ أمد بعيد، نما وترعرع في صمت، وأعلن عن وجوده في لحظات ترقب وانتظار، عجبت للاستعداد الذي خامرني لأول وهلة، دون أن أراها، أبديت استعدادي دون أن أقف على هويتها.

ذهبت توًا إلى الكافيتريا" حيث اللقاء، مضت نصف الساعة ويزيد، الخيال يمرح في ملعب الحب، تحت خمائل

نسجتها كلمات رقيقة ناعمة، في ظل سماء مزدانة بالنجوم المتألقة، تعكس نظرات الوله، وتمتص الشفاه رحيق زهور لم توجد بعد، أحلم وأنا جالس أرتشف القهوة، يدي تلامس كفيها الناعمتين، أقول في نفسي: "جاءني الحب، هل أرفضه؟". أشعر بتأنيب نفسي من جمود لو تنكرت، أو أنكرت، خرجت عواطفي من القمقم، ولا رجعة إلا بمعجزة.

أزفت الساعة على الانتهاء، لم تطل طلعتها البهية، لم ترتسم البسمة السعيدة على شفتي، لم تتقافز نبضات قلبي لتحبو إلى لقائها، لم تكف عيناي عن التحديق، ولم يسقط إرهاق قلق الليل عن عيني.

ونوال، عرفت عنها الابنة الكبرى لأسرة متوسطة الحال، تعيش في ضاحية مزدحمة بالسكان، تمضي الحياة بأسرتها في خط مرسوم لا فكاك منه، المعاناة في كل شئ، كان

لابد أن تتجمل، وتتزين، كان لابـد من قشرة لامعة تغطي رتوق الثـوب الاجتـماعي المهلهل، تعـتبـر الحصـول على الشهادة كفاح يشرفها أن تذكـره لنفسها وتخفيه عن الناس، حين رأيتـها أول مـرة قلت في نفسي: "مـا حاجـتهـا إلى العمل؟" مظهـرها أغنى من الانخراط في سلك الوظيـفة، زينتها والاعتناء بشعرها أغلى من أي مرتب ستحصل عليه، ثوبها أغلى من أن يستهلك خلف مكتب أيًا كان، تبدد هذا التصور جـميعه حين أخبرتني أنـها عملت في بعض المواقع عمالة غـير منتظمة، ومفـهومي لهذه العمـالة أجر مرتفع، ومعاملة غير عـادية، قبل أن يراودني الشك ويفتت عضدي سألتها:

ـ هل لديك فكرة عن أجر الوظيفة؟

قالت:

ـ أجل. أعرف.

قلت:

ـ هل سيكفيك؟

قالت وهي تميل برأسها إلى الأمام قليلاً، وتسقط خصلة من شعر على جبينها:

ـ فكرت في هذا، أستطيع استثمار بعض الوقت في عمل آخر.

ـ قلت:

ـ قد لا يتيسر هذا العمل الآخر؟

قالت:

ـ كله على الله، المهم الدوام.

توقفت عن الاستمرار، أكبرت فيها اعتمادها على الله، وقفت على سمة من سمات الفضيلة، مثل هذه لا يمكن أن تكون عابثة، أو لاهية، وما مظهرها إلا لكسب احترام الناس، الذين لا يهمهم إلا الشكل دون المضمون.

تململت في مجلسي، لا جدوى من الانتظار، ماذا حدث؟ كانت تسبقني في اللقاءات السابقة، هل ألمَّ بها طارئ ما أخرها؟ أم انقضت حاجتها ولم يعد يهمها أمري؟ قلت في نفسي: "عشر دقائق آخرى، لو جاءت سألومها وأعنف لها القول". طلبت قهوة ثانية، قلت: "أشربها وأنصرف".

خلال رشفات القهوة، لم يكف خيالها عن التلاعب بي، أراه متلبسًا الفتيات رواد "الكافيتريا"، أراه يضع قسمات وجهها على كل الوجوه، أراه يسعى خلف كل فتاة تسير عبر الطريق الذي أطل عليه من الشرفة، حرمته من متعة تعذيبي وأسقطت عيني على وجه الطاولة أرقب فنجان القهوة وهو يتناقص، لحظة وأنتهى.

تناهى إلى أذني صوتها، رفعت رأسي، رأيتها تشير لفتاة تصحبها نحوي، اقتربا، قمت مصافحًا ومحييًا، دعوتهما

للجلوس، في نظراتي عتاب كبير أحست به، قالت وشفتاها تنم عن بسمة أسف:

ـ رجاء أخرتني.

أطلت من عيني نظرة عفو، قالت رجاء:

ـ أنا السبب.

تناولتا مشروبهما، وأنا أتعجل الانتهاء للانصراف، قالت نوال:

ـ لصديقتي رجاء خدمة عندك.

وتوسّمت في ابتسامتها الرقيقة عونًا على إقناعي. ولعلها تذكرت معي كلمتي يوم التحقت بالوظيفة: "هذه أول وآخر خدمة أقوم بها".

أخذتني أفكاري إلى مجاهل شتّى، تلاحقت الخواطر، والذكريات على رأسي، ابتسمت من تصاريف القدر، سمعتها تقول:

ـ تريد مساعدتك في الحصول على وظيفة.

اتسـعت الدهشـة على شفـتي، وأنا أوجّـه نظراتي إلى عينيها. قالت:

ـ ماذا قلت؟

ابتسمت قائلاً:

ـ لا إله إلا الله.

قالتا معًا:

ـ محمد رسول الله.

مـستـحـيل. هل أنا في كـامل قواي العـقليـة؟ ألست مجنونًا. كانـت صرختي في إبراهيم ساعي مكتـبي صرخة مجنونة فعلاً وأنا آمره:

- أخرج سيارتي من الجراج.

لم أره حينما تركني. لم أر أحدًا. لم أر شيئًا.

- السيارة جاهزة يا سعادة البيه.

- والمصعد؟

- جاهز يا افندم.

وقف إبراهيم يشيعني بنظراته. إحـساس خاص أكنه له

بالحب منذ عينّا معًا في يوم واحد، أنا كباحث قانوني، وهو كساع للإدارة القانونية التي التحقت بها. أحببته لخلقه الكريم، وطاعته التي تجبر الإنسان على احترامه. تركته ورائي رافعًا يده بالتحية. بعد ترقيتي اخترته ساعيًا لمكتبي، خشيت أن تقفز الدموع من عينيه لو أعلنته بالخبر. لا بأس من تجاهله. سيعرف بعد قليل. ارتبكت وارتعشت مفاصلي، كدت أتهاوى. رفع عامل المصعد يده بالتحية، أخذ المصعد في الهبوط، تمنيت في تلك اللحظة أن يسقط بي دفعة واحدة، ولتكن النهاية، لكن ما ذنب عامل المصعد، أي فاجعة ألمت بي، وأي كارثة تحيق بحياتي.

ـ وصلنا يا سعادة البيه.

غادرت المصعد متعجلاً الهرب. أعرف أنه خلال ثوان قليلة سينقل الخبر من إدارة إلى إدارة، ومن موظف إلى موظف. ابتلعت خوفي بعد أن أسقطني المصعد قبل أن

يسقط الخبر إلى حارس البوابة. يقينًا لم يصله بعد؛ فقد رفع يديه بالتحية، أومأت برأسي وأنا أفتش بعيني عن مكان سيارتي.

جلست خلف عجلة القيادة. انطلقت السيارة دون أن ألقي أمرًا. كل شئ أمام عيني تذروه الرياح. أوقفتني إشارة المرور. ارتفع ورائي صوت كلاكسات السيارات، انطلقت مرة أخرى، ما بين غمضة عين وانتباهتها انهار كل شئ، نظرت إلى الطريق الخالي أمامي وحدقت طويلاً طويلاً.

كنت موظفًا صغيرًا في إحدى الوزارات قانعًا بقبر شهادتي الجامعية التي حصلت عليها بعد سنوات عجاف، تكبدت فيها أسرتي آلام ومهانة العوز والحاجة، تفتحت الآمال أمامي حينما أتيحت لي فرصة للعمل في هذه الشركة، وكانت في بدء مزاولة نشاطها. كان سلَّم الترقي أمامي خاليًا. أتاحت لي الوظيفة سعة في الرزق، وبحبوحة

في العيش. ابتسم لي الحظ وتزوجت بإحدى بنات الأسر الثرية، التي كنت أسمع عنها في الحكايات، شعرت أنني بهذا الزواج أنتقل إلى مصاف السادة وأبناء الأكرمين، وجدت نفسي برجوازيًا صغيرا يحبو نحو آفاق واسعة. رقيت إلى عضو مجلس إدارة، امتلأت حياتي بالآمال، وصار المستقبل في يدي أشبه بحلقة المفاتيح.

الأصل في وجودي أبي وأمي، أنا الفرع الجاحد الذي تنكر لهما. اجتذبتني أنوار الثراء، فلم أعد أرى تحت قدمي حيث يرقد أصلي يئن ويتألم. نسيت تمامًا أسرتي. كانت عطاياي لهما تشعرهما بالهوان، فكفّا عن زيارتي، وارتاحت زوجتي سعاد لتلك القطيعة، استأثرت بي وحدها، ثم استأثرت بي آمالي، ثم استأثر بي طفليّ عاصم وأماني. كنت مرشحًا لمنصب نائب رئيس مجلس الإدارة. كان ممكنًا ألا يحدث الصدام بيني وبين النائب الحالي، لكنه

حـدث، كـان هو البـادئ، وجـه إليّ اللـوم واحـتـد بيننا النقاش. كدت أتصدى له ولكنه لم يترك لي الفرصة، أخذ ينهشني، لم أتمالك زمـام كرامتي، كلت له الصـاع صاعين فنظر إليّ نظرة لا أنساها ما حييت، وقال في تشفٍّ:

ـ من تظن نفسك؟ ابن طباخ حقير.

صرخت عيناي غضبًا وثورة:

ـ لا يهـمني ابن مـن أكـون؟ بكفـاءتي ومـجـهـودي، بجدارتي أثبت وجودي.

طردني من مكتبه، استغل نفوذه العائلي، و . .

أوقـفت السيـارة، لم أعـد أرى، الطريق يبـدو كخليـة نحل، بددت الأنوار نور عيني، أكلت الأفكار رأسي، أكل الجـراد الأخضـر واليـابس. السـمـاء تطبق على الأرض، والأرض تغور وتغور نحو أعماق الجحيم.

صحـيح ابن من أنا؟ أي صدفة ساقـتني لأن أنخرط في

صفوف تلك الطبقة التي عرفتها وأنكرت معرفتها بي. كيف عاش الفرع وحده، وكيف أمكن له أن يعيش بعيدًا عن جذوره الراسخة في الأرض؟ مسكين أنا. إبراهيم ساعي مكتبي، اكتشفت أنه برجوازي صغير فشل في الحصول على الشهادة الجامعية. فتشت في الشركة كلها، وجدت أنهم جميعًا أولاد ناس وأنا وقلة أمثالي أولاد . . .

السماء تمطر ثلجًا يتحول إلى فتات لمجرد اصطدامه بالأرض. الثلج تذيبه الشمس الساطعة وسط السماء. أي عجب هذا؟ الحياة ملأى بالأعاجيب الطبيعية أيضًا. السماء تمطر والشمس ساطعة. دوت في أذني كلمات النائب "ابن طباخ حقير"، انهار كل شئ لوجود هذه الكلمة في شهادة ميلادي، برئ أنا من مبادئهم، كلهم يقول أنا، ثم أنا، ثم أنا، وتتحكم في كل منهم الأنا حتى صار كل منهم أشبه بإله متأله.

غادرت السيارة، درت حولهـا، لم أعد جديرًا بها، ابن الطبـاخ لا يركب إلا ساقـيه، تـصلبت عروقي وأنا أتذكـر زوجتي، لقد تركتها تزاول عملها بالشركة، ينبغي أن أعود، فلا شك أنها علمت بالفاجعة، لا شك أنها . .

أصابتني صحوة حقيقية، أفقت لأعرف أن اليوم انقضى، وأن الشركة أنهت أعمـالها اليومية منذ أمد بعـيد، لي أكثر من يوم، بل الكثيـر من الأعوام وأنا أسير على غـير هدى بسـيـارتي، حـقب وأزمـان مـرت عليّ وأنا في حـالة من الثمالة، شـعرت بالشوق الجارف لصدر زوجـتي؛ أدفن فيه تلك الصـحـوة التي أوشكت أن تقضـي علي، شوق آخـر عنيف لأنظر طفلـيّ وأبكي، عدت إلى السـيـارة سريعًـا، دارت سريعًا عجلاتهـا إلى البيت، أقلني المصعد إلى الدور العاشر، فتحت باب الشقـة بمفتاحي الخاص، ارتفع الصدى يردد "الصـــالة خـــاوية إلا من الجـــدران"، هرولت إلى

الحجرات، كل شئ يطرقع حولي. خطواتي وأنفاسي، شهقاتي وصرخاتي، بكائي، وسط كل همومي وأحزاني اكتشفت واقعًا نسيته، هرولت أفكاري كلها إلى شقة أبي وأمي، ملجئي وملاذي في محنتي. اكتشفت حقيقة أنني ابن طباخ، وأي لافتة أخرى زيف وخداع. وقفت في الشرفة أودع كل شئ . . السماء والأرض، الأشجار والأطيار، أفلتت حلقة مفاتيحي وسقطت، لم أستطع متابعتها، تراجعت، هبطت الدرجات قفزًا، خرجت إلى الشارع، رأيت جمعًا من الناس، ولغط كثير يدور بينهم، اندسست لأقف على الأمر، رأيت حلقة مفاتيحي غارقة في بحيرة من الدم بجوار رأس لجسد تغطيه صفحات من جريدة الصباح، لا يسعني إلا أن أفر. مجرم أنا ؟ قاتل أنا؟ أجرمت في كل شئ. لا شك أن الله استجاب لدعوات أمي وأبي. جريمة عقوق الوالدين. لقد رحلت

زوجتي وطفلاي، سيحل والدها محلي أبًا لهما. يشب طفلاي بلا أب، حينما يأخذهما الشوق لي تصحبهما أمهما لزيارة قبر تزعم أنه قبري. معها حق؛ كيف ترضى بي زوجًا بلا لافتة على باب شقتنا عليها اسمي ولقبي؟ كيف يقبل ابني عاصم الذهاب إلى المدرسة بغير السيارة؟ هل يقبلني أصدقائي ومعارفي ولا يطردونني من زمرتهم لتخلي الألقاب عني؟ القتيل من يكون؟ ساقاي تترنحان، أستند إلى جدار، جريمتي ليس فيها سبق إصرار وتعمد، سأنال البراءة في نهاية المطاف. حقًا سأنال البراءة.

خطواتي التعبة تقودني إلى بيت أسرتي، هناك أجد الحب الأبدي، هناك أجد الحنان يخفف عني ويمسح عني دموعي، الأمل ينفض التعب عن خطواتي، باب البيت يفتح ذراعيه لاستقبالي، أسرتي الكبيرة تنتظرني، انهار كل ما تخيلته من أخيلة، عصام يهرول إليّ صائحًا:

ـ بابا . . بابا.

أماني تهتز على صدر سعاد، أمي تتنهد في ارتياح، أبي يجفف دموعًا انزلقت على تجاعـيد وجهه، الحب يحوطني بكل القلوب. تهاويت وأذرع كثيـرة تساندني، كلمة واحدة من سعاد أعادتني إلى رشدي:

ـ بحـبي سنبدأ من جـديد. بحـبنا جمـيـعًا سنبـدأ من جديد.

تطلعت . . بحلقت . . بـكيت . . تمتمت: "مـا ذنب القتيل؟".

ـ لا أراكم الله المكروه أبدًا.

قالها وضـحك، ترجرجت ذقنه البيضاء الكثـة، حبات كـالندى المبلور أو قطرات من اللبن الناصع تـترقـرق على جـانبي أنفه العـريض، تغـوص في شعـر الذقن الأبيض، تتسربل بين الشعيرات حيث الأخاديد والأنهار.

كان مستلقـيًا على ظهره لعدة أيام خلت، يستعـيد قصة السرير الحديـدي الذي يرقد فوقه، تقف أعمـدته الحديدية الأربعة مشـرعة نحو السقـف، و يذكر الدرجات الخشـبية التي اندثرت، والتي صُنـعت للصعـود عند النوم. كـانت

حميدة زوجته ترفع الدرجات كل صباح، وتضعها مع قدوم الليل، وتردد متباهية:

ـ يظل السرير نظيفًا طول اليوم.

يوم تزوجها كانت كالريشة، رفعها، وبرفق وضعها فوقه، كانت خجلة، قال مبتسمًا:

ـ سنة الحياة يا امرأة. ارفعي اليشمك.

ارتعش الفراش تحت جسدها الخفيف، خبط حافة الفراش بيديه وقال:

ـ ألا تريدين إنجاب الأولاد؟

ـ طبعًا.

قال:

ـ خلاص، ارفعي اليشمك.

لم تكن حميدة ـ بعد تلك الليلة الأولى ـ تخافه، أو تهابه، وإنما تقدره، أنجبت الولدين والبنت، البيت واحة

أمن وطمأنينة، لم يكن فيه أب فقط، أو زوج، وإنما رجل، ولم تكن هي زوجة وإنما أم، وأخت، بكاها سنوات طويلة بعد وفاتها، وما زال يذكرها دائمًا بالخير.

ـ لا أراكم الله المكروه أبدًا.

قالها بعـد أن توضأ فوق الفراش، قامت ابنتـه بزحزحة جسده الثقـيل إلى جانب من السرير، وفردت نصف الملاءة النظيفة، ثم أعادته إلى موضعه وفردت النصف الآخر، قال بعد أن استلقى منهوكًا:

ـ لو حـافظت على الدرجـات الخـشـبـيـة لارتحت من متاعبي.

أمسكت يده وقبلتها، ثم قالت:

ـ أبي، لا تقل هذا مرة ثانية.

ابتسم، وتمتم:

ـ الله الحي القيوم.

ثم استغرق في صلاة صامتة.

- لا أراكم الله المكروه أبدًا.

قالها وهو يفتح عينيه الشبه مغمضتين بصعوبة، وابنه الكبير يتناول يده ويقبل ظهرها، تمتم وهو يمسح بيده الأخرى رأس ابنه:

- بارك الله فيك، وفي أبنائك يا ولدي.

ثم استفاق وسأله:

- من هذا السيد يا ولد؟

- الطبيب يا أبي.

قال مشيحًا بوجهه:

- ألم أقل لا فائدة، ألا تيأس أبدًا.

جلس الطبيب على حافة السرير، أمسك ذراعه وعرّاها، قاس النبض، طلب معاونة الابن لرفع الجسد نصف جلسة، رفع الجلباب حتى العنق، قبلت سماعته الصدر، ثم

الظهر، مصمص شفتيه وقال:

ـ لا شئ.

نظر العجوز إلى ابنه وقال:

ـ ألم أقل.

ثم مقهقهًا:

ـ اكتب يا طبيب في تذكرتك لا شئ.

ضحك الطبيب وهو يخط بقلمه تذكرة العلاج قائلاً:

ـ بعض المقويات يا حاج.

حين عاد الابن بعد وداع الطبيب قال له أبوه:

ـ لا داعي للإسراف يا بني، أنا لست مـريضًا، أنا أتأمل الدنيا الفانية، هذا كل شئ.

قال الابن :

ـ وساقاك اللتان لا تقويان على حملك؟

قال في غضب:

ـ لا حـول ولا قوة إلا بالله، أنسـيت أنهمـا حملتـاني العمر كله، لماذا الآن تتهمونهمـا بالتقصير، وهل نغز الحقن وابتلاع الحبوب سيمدهما بالقوة؟

دخلت الابنة بطبق الحساء، وضعت الصينية على منضدة صغيرة وقالت:

ـ ساعده يا أخي على الجلوس ليأكل.

قام الأخ بالمهمة، وضع صدره خلف ظهر أبيه كمسند:

ـ استرح على صدري يا أبي.

أمسك الأب الطبق بكلتـا يديه، دلقه في جوفـه، حمد الله، وتمتم:

ـ لم يعد له زاد.

ثم بصوت واضح لابنته:

ـ جزاكِ الله كل الخير يا ابنتي.

تبـادل الأخ واختـه النظرات الحـيرى، خـرجت دامعـة

العينين وصوته يتخافت خلفها:

ـ أتعرف يا ابني من الذين لا يحاسبون في القبر؟

ـ من يا أبي؟

ـ الأنبـياء والصـديقين والشهـداء، والذين يرافقـهم يوم موتهم الأطفال.

قال الابن:

ـ الأطفال أحباب الله.

قال الأب بصوت عفي:

ـ قم من ورائي، اذهب لأطفالك، أنا بخير.

حين أراح رأسه على الوسادة، أخذ يتـمتم بكلمات غير واضحة، ثم استغرق في الخيط الفاصل بين اليقظة والنوم.

جلس الابن في الحـجرة الآخـرى ينهنه بالبكاء، قـالت أخته بصوت هامس:

ـ حذار أن يسمعك.

وأردفت:

ـ هل أعددت عدتك؟

هزَّ رأسه بالإيجاب.

ـ ألم يسألك عن أخيك؟

توقفا على صوت صفق راحتي الأب، هرولا إليه، سأل ابنه:

ـ أين أخوك ؟

ـ سيأتي بعد قليل.

ـ ظننته لن يأتي كعادته.

ثم تطلع إلى رف المذياع وقال:

ـ أسمعني القرآن.

أدار الابن المذياع، جلس على حافة الفـراش وأخته تعد له كوب الشـاي، أخذت رأسه تميل يمنة ويسـرة مع صوت المقرئ، والعجوز يشارك المقرئ التلاوة بصوت رخيم، تسح

عيناه الدموع، لمسها الابن بطرف إصبعه:

ـ ما يبكيك يا أبي؟

ـ الفرحة يا بني. ثم جفف دموعه وقال:

ـ أتعـرف يا بني أن قلوب البـشر جـامدة؟ يقـول الناس لبـعـضـهم "لا أراكم اللـه المكروه أبدًا"، هذا جـحـود، والمفروض مـحاربة هذا الجحود في لغـة الناس، لا يصيب الله عبدًا من عباده بمكروه أبدًا، فلماذا يتقول الناس بها؟

قال الابن:

ـ ورثها الناس يا أبي.

قال الأب بعد حمد الله:

ـ أريد شربة ماء.

حمل الابن كوب الماء، قرّبه من شفتي أبيه، تناول الأب رشفة، ثم حمد الله وتمتم:

ـ لم يعد له ماء.

وبعد أن استلقى على ظهره ثانية قال:

- يا بني. لا أريد صرخة واحدة في جنازتي، ولا عزاء بعد ثلاثة أيام، ولا تزور اختك قبري. أتفهم؟

- أمرك يا أبي.

- فليسامحها الله.

- من يا أبي؟

- أختك.

- لماذا يا أبي؟

- لأنها ستخالفك، وستزور قبري. ستقلق راحة الأطفال حولي.

- أي أطفال يا أبي.

- ملائكة رحمتي يا بني. إنهم آتون إليّ، ألا تراهم؟

- أجل يا أبي. كنت أراهم في كُتَّابك وأنت تعلِّمهم القرآن.

أمسك الأب يد ابنه، مسحها بيده الأخرى، قال:

ـ دعني وحدي، أغلق الباب وراءك.

خـرج الابن، ترك الباب مـواربًا، وقف سـاهمًا، شـد انتباهه صوت أبيه مليئًا بالفرحة:

ـ هيا يا أحبائي، اقرأوا الفاتحة.

نظر الابن من فـرجة البـاب، رأى ابتـسامـة ترف على شفتي أبيه، رأى اللبن يتـرقرق تحت جلد وجهه، رآه يصل إلى يديه، يبدو واضحًا جليًا في رجليه. سمعه يقول:

ـ أحسنتم يا أحبائي.

وارتفع صوته شاهقًا:

ـ أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمد رسول الله.

اقتـحم الابن الحـجرة، اقتـرب بوجهـه من وجه أبـيه، تحسس النبض في معصمه، أجهش بالبكاء.

وتحـقـقت نبـوءة الأب، حـمل مـعـه في كـفنه طفلين صغيرين، ولحق به على باب القبر طفلان آخران.

الساعة

كنت جالسًا فوق المقعد المريح الذي خصصت به نفسي، أتلهى بمتابعة ما يبثه التلفاز، وذهني يجول في حوانيت لعب الأطفال، أبحث عن لعبة تناسب ابنتي، أقدمها لها في عيد ميلادها الثاني، وكانت زوجتي تصافح صحف الصباح بوجه بشوش، ترتسم على تقاطيعه علامات الرضا، بينما ابني يتابع شريط الكرتون الذي يعرض على الشاشة الصغيرة، وابنتي تعبث ببعض اللعب القديمة، قامت فجأة من جلستها، جاءت ناحيتي، قالت ويدها الصغيرة تضرب ركبتي في رتابة: "اشترِ لي ساعة يا بابا..

اشترِ لي ساعة".

قهقهت ضاحكًا، بينما تطلعت أمها وافترت شفتاها عن ضحكة عذبة، أمسكت ابنتي أخاها من معصمه، بينما سألني هو: "كم الساعة يا أبي؟". صحت غاضبًا: "ساعتي معطلة. كل دقيقة تسألني كم الساعة؟ كم الساعة؟" ترك مقعده وهرول ناحيتي، أمسك بمعصمي ممازحًا: "سألتك كم الساعة؟" قلت وأنا أدفعه برفق، وما زالت أخته تضربني بيدها اللينة: "لا تلبسها في يدك ما دمت لا تعرف فيها". وقف ونظر إلى ساعته، قال بعد برهة: "الساعة عشرة". بينما قالت الصغيرة بلسان معوج: "الساعة عشرة ونص".

كان عليّ أن أتخلص من مداعبة ابني البالغ من العمر خمس سنوات، ومن مشاغبة ابنتي وهي تضربني ولا تكف، فإن لم أبادر بالأمر بالكف أستمرأ مداعبته بما يسبب لي الضيق، فأشرت إلى التلفاز قائلاً: "انظرا . .

كوكـوواوا" . شد التلفاز انتـباههمـا، بينما شرد انتـباهي، وتوغل بعيدًا عني.

سمعت صـوته يردد: "إذا نجحت اشتريـت لك ساعة" . ونجحت في عدة أعوام دراسية، وفي مطلع كل عام دراسي جديد أسمعه يردد: "إذا نجحت اشتريت لك ساعة" .

كانت الأمنيـة تكبر في رأسي، وفي نفس الوقت أشـعر بعجـز أبي عن تحقيـقها، دائمًـا أحس أنه لم يفِ بالوعد، أسأله كل عام بعـد أن أزف إليه نجاحي: "هل ستـشتري لي الساعة؟" . يقول في ضيق وتبرم ـ وكأنني اغتلت فرحته ـ: "إن شاء الله. إن شاء الله" .

سنوات وسنوات يكبر فـيها حلمي، يزداد فيهـا شعوري بعـجز أبي، كنت في تلـك السن أقدر مـعاناة أبي إذ كـان إيراده من عمله لا يفي باحتياجاتنا، إخوتي الأصغر مني في مـراحل مـخـتلـفـة من التـعليم، أنا وصلـت إلى المرحلة

الإعدادية، كنا نعيش في بيت أمي الذي ورثته عن أهلها، في حي شعبي مليئ بالناس، والكلاب، والقطط، والحمير، وعربات اليد، والباعة، مليئ بالصخب والضجيج، وشتى أنواع المهن حيث: المطعم، البقالة، المصبغة، بائع الحبوب، بائع اللحم، محل تهذيب الشعر، بائع الأقمشة، وتحيط بالحي أضرحة أولياء الله الصالحين.
كان الحي في شكل دائرة على غرار المدن القديمة، محيطه شارع رئيسي يطلق عليه داير الناحية، تقع تلك الأضرحة في جهات ثلاث منه، وفي الجهة الرابعة أرض فضاء واسعة يطلق عليها "الجرن"، تقع على حافة الجرن حنفية الحكومة التي تقدم الماء النقي بلا مقابل، وجاء العمران ليشمل الحي برعايته، أقيمت المباني على محيط الشارع الرئيسي على الطرز الحديثة، امتدت إليها مواسير المياه، والصرف، والكهرباء، ويقع بيتنا عند التقاء شارع جانبي بالشارع

الرئيسي، كبرج يكشف جانبًا كبيرًا من محيط الدائرة.

كنت أحيانًا كثيرة أسمع أمي تتحدث إلى أبي: "نبيع كذا وكذا وندخل المياه". وبعد فترة تدخل مواسير المياه إلى البيت. "نبيع كذا وكذا وندخل الصرف". وبعد فترة تدخل مواسير الصرف البيت. "نبيع كذا وكذا ونبني حجرة يذاكر فيها الأولاد". وشيدت حجرة بالسطح للمذاكرة. وأسأل نفسي: "لمَ لا أسمعهما يتحدثان عن ساعة لي؟". وكدت أطرح السؤال علانية لكن استوقفني ما سمعته: "لو كان لدينا شيئًا نبيعه لأدخلنا الكهرباء". رد أبي: "نحمد الله على ذلك، الأولاد كبروا، وزادت مصاريفهم، ولا يوجد لدينا ما نبيعه ويفي بمصاريف توصيل الكهرباء، وكلّما اقترب امتحان، اتسعت دائرة أحلامي بالساعة، فأجد وأجتهد وأسهر الليل حتى مطلع الفجر، داعيًا الله أن يوفقني للنجاح.

كان أبي يأخذني معه في بعض الأمسيات خارج البيت، يبدأ حديثه دائمًا: "إن شاء الله سأشتري لك ساعة"، ثم عقّب هذه المرة: "أنت الآن في الشهادة الإعدادية، اجتهد حتى تنجح؛ ليس في استطاعتي تدبير مصاريفك لعام ترسب فيه".

ثم يزيح عن كاهلي عناء التحصيل والدرس، فيدخلني محل شواء لأتناول وجبة من اللحم، وحين يؤتى بالطعام، أدعوه ليشاركني فيقول: "كل بالهناء والشفاء، أنت تسهر وتذاكر، وطعام البيت لا يفي باحتياجات مجهودك". "الأكل كثير، كل يا أبي". "جئت بك لأن إخوتك لا يبذلون مجهودًا مثلك، وطعامنا في البيت لا يعوضك". وأظل أردد "كُل يا أبي"، وأنا ألتهم اللحم التهامًا، وهو يحدثني عن بذلي في تحصيل العلم، وعن أمنيته أن يراني مثل فلان، وفلان، بل أحسن من أبناء جميع الأقارب

والمعارف.

وأظل أوطن العزم على النجاح، وتحقيق أمنيته لأحظى بأمنية عمري، ألا وهي الساعة.

وأديت الامتحان في الشهادة الإعدادية، وفي كل يوم أعود للبيت من مصاحبة الرفاق في لهو ولعب، وأستخرج إجابات الأسئلة من الكتب، وأتأكد من نجاحي؛ لأن إجاباتي كلها تؤهلني لذلك.

واستولت عليّ المخاوف، وقد أكد لي أبي أن الساعة هذه المرة لدى صديق له، سيقدمها إليّ عند نجاحي.

كانت أحلامي كلها تدور في فلك الرسوب، رغم تأكدي من سلامة إجاباتي، كنت أصرخ في نومي، وأطلب إعادة تصحيح إجاباتي، وينتابني الفزع، وتعلو صرخاتي، يوقظني أبي، يربت على ظهري بحنو، ويجفف عرقي المنهمر، وبعد أن أهدأ، أسمعه يحادث أمي: "الولد متعب

من مجهود المذاكرة طول السنة" .

وجاء اليوم الموعود، جاءت لحظة ظهور النتيجة، علمت أنها ستعلق بالمدرسة قبل صـدور الصحيفة التي تحمل أرقام الناجحين، هرولت في صـحبة أبي، وقفت وسط جـمهرة التلاميذ، كـأنه يوم الحشر، كل تلميذ يصـحب معه أمه أو أبيه، أخـته أو أخيـه، كل العيـون تخترق السـور الحديدي تحـملق في السبـورة السوداء فـوق حاملهـا الخشـبي، أبي يبسمل، يتضرع إلى الله أن يأخذ بيدي، كانت لحظة ميلاد لي عشتها بنفسي، اجتمع داخلي كل الترقب، وكل الأمل، وكل الأمنيـات التي ضـمتـها جـوانح من أحـاطوا بي يوم ميـلادي الأول والذي لم أشـهده، ولا أعرف شـيئًـا عنه. لحظات عسيرة، ولحظات مخاض، وعلقت اللوحة، غارت أنفـاسي في صدري، انزلق اللـعاب إلى الداخل، توقـفت الغدد عن إفرازه تمامًا، اندسست وسط التلاميذ، أردد رقمي

حتى لا أنســاه، تضخم أمام عـيني حتى أني لم أر أرقـامًا
غيـره، هذا يدفـعني، ذاك يلكزني، اقتـربت من الســبورة
أكثـر، فأكـثر، تطلعت إلى الأرقـام، تلتهـمها عـيناي في
شـراهة، عددها قلـيل، رقمي لا أجـده، غـيري لم يجـد
رقمـه، تعالـت الصرخات، الـشهقـات، انسابـت دموع،
تحدثت شفاه، وارتفـعت التمتمات إلى حد الفـحيح: "غير
معـقول، مسـتحـيل" . رددتها مع من رددوها، مع شـهيق
طويل أشبـه بمقدمة للاختناق، أمـسك أبي بذراعي، جرني
بهدوء إلى الخـارج، وأنا أحاول التخلـص من يديه والعودة
إلى السبـورة، ويحاول أبي إخراجي، والدمـوع قد أغلقت
عيني تمامًا، وقـدمي قد أصابها الشلل، بيـنما ارتفع صوت
مجهول المصدر يقول: "أيهـا التلاميذ، هذه أرقام الراسبين"
هبط الصـمت فجـأة على الجميـع، كفت عيـون عن بذل
الدمـوع، انطلقت صـيحـات الفرح، وتـعالت الزغـاريد،

احتضنني أبي مقبلاً وجهي: "مبروك . . مبروك".
أحسست بولادتي، وخروجي من بئر الظلمات، الدموع ملتصقة بوجهي كسائل لزج، والأنفاس تتردد في صوت مسموع داخل صدري، وما زالت قدماي على تشبثها بالأرض، يشدني أبي: "هيا. نجحت والحمد لله". قلت في توجس: "أنا غير مطمئن، سأنتظر صدور الصحيفة". قال أبي: "قرأت بعينيك اللوحة، رقمك غير وارد بها، ماذا تنتظر؟ "قلت على الفور: "لابد من التيقن، لابد أن أرى رقمي بعيني رأسي".

أمام إصراري، ظللنا بالشارع أمام المدرسة، نتطلع إلى الأفق الذي يكتنفه الظلام، وقد خلف وراءه انتصاف الليل، وعند الواحدة تقريبًا سمعت بائع الصحف: نتيجة الإعدادية، نتيجة الإعدادية".

هرولت ضمن من هرولوا، اختطفت صحيفة من البائع

وتركت أبي يمنحه ثـمنها، هرولت إلى أقرب عـامود نور. التهـمت الصفحـات حتى جـء اسم مدرستي، والتـهمت الأرقام حتى وجدت رقـمي، و تنفست في ارتياح. تهالك جسدي كله على الطوار. دوت الزغاريد في البيت، اشترى أبي الشراب والحلوى لمن جـاءوا لعدة أيام للتـهنئة، بدوت أمام نفسي كأنني عنترة وقد فاز بعـد العناء بحبيبته. طالبت أبي بالساعة، وبعد عـدة أيام جاءني رده: "إن شاء الله. إن شاء الله".

أنهيت دراسـتي الثانوية دون رسـوب، ودون مطالبة أبي بالساعـة، عزمت على شرائهـا من راتبي حين أحصل على عمل، عندئذٍ فـقط أدركت أن أبي كان يحفـزني بالأماني، والآمال فقط.

وبعد أن التـحقت بالعمل ، كـان عسيـرًا عليّ أن أقتني الساعة، رغم أن ثمنها يتراوح بين سبـعة وعشرة جنيهات،

لكني عـجـزت عن شـرائهـا. إلى أن قـيض الله لي والد صديق، يبيع الساعات ويقبض ثـمنها على أقساط شهرية، دفعت مقدم الثمن ووضعت الساعة في معصمي...

ابتسمت وأنا أتذكر كل هذه الخواطر، وتلك الذكريات، نظرت إلى طفلتي وقلت لأمها: "ابنتك تأمرني بشراء ساعة لها"، قالت مـبتسمة: "لم لا، أخـوها يمتلك ساعة"، ثم عادت إلى صحفها وأنا أرى أبي، منذ بضعة أيام وهو يقدم ساعته القديمة لابني بعد أن اشترى غيرها، تطلع يومها إليّ وقـال باسمًـا: "ها قد وفـيت بالوعـد". في تلك اللحظة غارت عيناي في صـفحة وجه ابني الفـرحة، وهمست في نفسي: "بماذا أمنيك يا بني، لا أقل من رحلة إلى الفضاء أو القمر".

كفت صـغيـرتي عن ضربي علـى ركبتي، اتجـهت إلى أخيـها، أمسكت مـعصمـه تحاول انتزاع السـاعة منه، وهو

يدفعها برفق: "ابتعدي عني . . ابتعدي عني" .

لكنهـا لم تبتـعـد، بل أخذت تضـربه، وتبكي مطالبـة بالساعة .

وقف الفتى يودع مرتع صباه ، وشـقوة شبابه ، تحتضن عيناه كل الأبنية بمكوناتها من أبواب وشرفات ، حتى ألوان الطلاء ، اندهش لتبـاين الألوان ، وازدادت دهشته لتـعرج السماء فوق الأسطح ما بين بيوت عالية وأخرى منخفضة ، دار في ذهنه ما حكي له عن البلد الذي يزمع الرحيل إليه، هناك البـيوت كلها على طراز واحـد لكل منطقة ، مـطلية بلون واحد ، لا تشذ شرفة لاختلاف لونها عن الأخريات، لا يخرج باب بيت عن المألوف في كل الأبواب .

مشي خطوات بطيئة ، يرد تحـايا الوداع التي تنهال عليه

من المعارف والجيران ، عم عبده البقال نهض إليه وصافحه بحرارة ، كان يشتري منه الدخان بالأجل ، أول الشهر يدفع الثمن ، عم عزت بائع الجرائد شدد عليه أن يجلس معه في القهوة ويتناول الشاي ، عم إبراعيم أعطاه آية الكرسي وقال :

ـ ستحفظك في غربتك من كل سوء .

وقف تحت شرفة صديقه وناداه ، لبى الآخر النداء قائلاً :

ـ نازل لك حالاً .

كالمعتاد ، تطلع إلى شرفتها فوجدها مغلقة ، شعر بإرهاق شديد ، كأن به هبوطًا حادًا في القلب ، كرر نداءه لصديقه مرة أخرى ، وأتبعها بقوله :

ـ سأنتظرك بالمقهى .

مشى يدفع قدميه دفعًا ، فوق أقرب كرسي تهالك ،

ارتطمت حقيبة السفر بالأرض .

صاح عم عزت بصوته الأجش :

ـ شاى يا ولد لمحمد بيه على حسابى .

رد محمد :

ـ شكراً يا عم عزت :

رد عم عزت :

ـ خيرك سابق يا محمد بيه .

فتش محمد فى ذاكـرته، ماذا قدم لعم عزت، لا شئ، سوى انتظامه فى شراء جرائد الصباح وبالأجل، يدفع ثمنها جملة أول كل شهر، أخرج آية الكرسى من جيبه وأخذ فى قراءتها، أطل للحظة نحـو شرفتها، مـازالت مغلقة، ازداد أمله، لابد أن يراها قبل السفـر، تواعدا بالأمس على الوداع بالنظرات، فلم لا تطل؟

جاء صديقه مـتأهبًا ، قال وهو يرفع الحقيبـة الكبيرة بيد

واحدة :

ـ هيا حتى لا نتأخر .

هتف عم عـزت مرة ثانية، وهـو يعاني نوبة سـعال من دخان "الجوزة" :

ـ شاي للأمير على حسابي يا ولد .

قال أمير :

ـ شكرًا يا عم عزت ، شكرًا ، لم يبق وقت .

قال عم عزت بعد أن تمالك أنفاسه :

ـ والشاي ؟.

وضع صبي القهوة صينية الشاي على المنضدة الصغيرة :

ـ الشاي .

دعا محمد صديقه :

ـ اشرب الشاي يا أمير ثم نذهب .

لمح أميـر علامـات الأسى على جبين مـحمـد ، تطلع

بدوره نحو الشــرفة المغلقة ، همَّ أن يتكلم، ســبقه محــمد قائلاً:

ـ لم تطل كما اتفقنا ، أخشى أن تكون غاضبة لسفري .

وكأن أمير كان يتلهف على الكلمة ، عبّر عن غضبه هو الآخر قائلاً :

ـ لا أدري أي مغنم فــي السفر الآن ، العــائدون يشكون مر الشكوى من سوء المعاملة ، من ضعف الأجور ، من..

قال محمد مقاطعًا :

ـ غضب عني .

رد أمير :

ـ كلا يا محمد ، لا مبرر إطلاقًا لتجشمك هذا العناء ، السفر في اعتـقادي للشباب الصغار ، للأجســام الفتية التي تتحمل العناء ، أما أنت .

قاطعه محمد وهو يرشف الشاي :

ـ أنا . أتظنني عجزت ، أنا . .

قال أمير :

ـ أنت في الأربعين .

قال محمد وهو يضع الكوب بغضب :

ـ وليس لي بيت يأويني .

قال أمير :

ـ ليست مشكلتك وحدك .

قال محمد في نبرة أسى :

ـ أعرف . مشكلتي ، ومشكلتك ، ومشكلة جيلنا ، لكن لابد وأن أعوض ما فات .

هزّ أمير منكبيه وصمت .

كادت الدموع تترقرق من عيني محمد وهو يعاود التطلع إلى الشرفة ، هل يخسر أماني قرب النهاية ؟ صحيح أنه خطبها ، وصحيح أنه انتهى من إعداد الأثاث ، وصحيح

أنها صبرت طويلاً ، وشاركته تحمل معاناته في تربية إخوته بعد وفاة والده ، وحتى كبروا ، صحيح أيضا أنها ضحت بالكثير من راحتها ، وطمأنينتها ، وتقبلت في سبيله الغمز واللمز والتبكيت ، لكن أمر الشقة وقف حجر عثرة في طريق إتمام حلمهما الذي شقيا من أجله ، و تكبدا الأهوال في سبيل تحقيقه ، لو كان في بيت أسرته مكان ، أو في بيت أسرتها ، لو وجد حجرة معزولة فوق سطح من الأسطح دون دفع مال للشيطان الرجيم ، لو . . لو . . لكن خابت كل المساعي التي بذلها ، وبذل في سبيلها من النفس الكرامة والكبرياء ، كم توسل لصاحب بيت! وكم تذلل لموظف يقوم بتوزيع شقق الحكومة ! وكم! وكم! واكتشف مؤخراً أن القرش فقط المذلل لكل الصعاب ، والمذل لكل النفوس ، وصمم على السفر .

دعاه أمير للذهاب خشية التأخر على موعد الطائرة ،

حاول مـحمد النهـوض لكنه لم يقدر ، قـال والدموع في عينيه :

ـ لابد أن أراها ، لابد .

قال أمير :

اصعد إليها .

قال محمد في عصبية :

ـ وأتنازل عن كرامتي ، تعرف مـا بيني وبين أسرتها من خلافات .

قال أمير محاولاً تهدئته :

ـ ستذوب هذه الخلافات يومًا ما ، فلم لا تبدأ من الآن في إذابتها .

قال محمد :

ـ أخشى زيادة أوارها .

رد أمير مهونًا الأمر :

ـ لا أظنهم بهذه القسوة ، مجرد تحية وداع .

قال محمد :

ـ أتوقع شرًا من ذلك .

ـ إذًا هيا بنا .

سبقه أمير بعدة خطوات ، وقف محمد يتطلع إلى شرفتها في توسل ، تألم ، ثم غضب ، ثم امتلكه اليأس، تطلع إلى خاتمها في إصبعه ، دس إصبعه كله في فمه ، عضت أسنانه الخاتم ، مشي خطواته في بطء ، توقف فجأة، وصوت يغتال أمن الشارع ، ساد المقهى الهرج ، الكل يتطلع نحو بيت أسرته ، جرى بدوره نحوه ، قابله أخوه الأصغر أمام الباب ، صاح فيه محمد :

ـ ماذا حدث ؟

ـ أمي ، بعد بكاء طويل سقطت مغشيًا عليها .

هرول محمد ، وفي أثره أمير ، وتبعهم نفر من

الجيران، اقتحـموا الشقة ، جثا محمـد إلى جوار أمه باكيا في تألم :

ـ أمي ، ها أنا يـا أمي ، أمي ، لم أسـافـر ، أمي ، محمد إلى جوارك يا أمي .

خرجت أنفاس أمه بصعوبة :

ـ محمد . . محمد .

ـ أنا محمد يا أمي . . أنا محمد .

فتحت الأم عينيها ، احتضنته بذراعيها ، أقامت جذعها وقبلته ونشيج البكاء يخنق صوتها :

ـ ما اعتدت فراقك أبدًا ، أشرب يا محمد . . أشرب .

تسارعت الأيدي تمده بأكواب الماء ، سقى أمه ، قال من خلال دموعه المنسابة :

ـ لن أسافر ، لن أسافر أبدًا .

دوت زغرودة في صـحن البيت تسـابق صاحـبتـها في

صعود الدرجات ، دخلت الشقة وكل العيون تتطلع إليها ، وعتاب كبير يطل من عيني محمد ، قالت أماني فرحة :

ـ أحسن خبر سمعته في حياتي .

سألها محمد بدهشة :

ـ ماذا يا ترى ؟

قالت :

ـ سمعت أنك لن تسافر .

وعاودت إطلاق الزغاريد ، بينما الجيران ـ وهم ينصرفون ـ يمصمصون الشفاه .

جثت أماني على ركبتيها إلى جوار محمد ، قالت والحب يدفع بالدموع من مآقيها :

ـ محمد ، أنا معك لخمس سنوات أخرى ، لا تحمل همي .

وتعانقت يداهما ، مدت الأم يدها لتحتضن الأيدي الدافئة .

زحام شديد، السيارات أشبه بعصافير تطير يمنة ويسرة، وفي كل اتجاه. فجأة سقطت تحت عجلات سيارتي، تجمع المارة، حاول البعض الاعتداء عليّ، وحاول البعض الآخر منع هذا الاعتداء. صرخت فيهم:

- والله ما صدمتها، هي ألقت بنفسها.

قال العقلاء:

- دعوه حتى تأتي الشرطة

قلت:

- طيب، دعوني أنقلها إلى المستشفى، قد يكون بها

بعض الرضوض.

قال البعض:

ـ معه حق.

وقال آخرون:

ـ أتريد خداعنا، تأخذها ثم تلقي بها في أي مكان، أين الضمير؟

صحت مكذبًا:

ـ لا والله، ليأت أحدكم معي.

قال البعض:

ـ بسيطة، تقدم له رشوة فيتركك تتوكل على الله.

قلت يائسًا:

ـ طيب، ابحثوا عن طبيب قريب واحضروه حالاً.

جلست فوق الطوار ألعن الحنين الذي شدني إلى هذا الشارع، وفي هذا اليوم بالذات، وفي تلك الساعة، ذلك

الشارع الذي كان مجهول الاسم، مـجهول الهوية، كان فيه بيوت اجتثت من جذورها، وجئ بالأوناش، والكاسحات، لمسطرة أعاليها مع أسافلهـا، وانبسطت الأرض، صار جسر السكة الحديد وحدة يرفع هامته بارتفاع مترين أو أكثر، بعد الهدم لم يرحل أحـد من العاملين ولا الآلات، وبدأ إقـامة منشـآت جديدة، كنا مذهـولين من عملقـة الآلات، تفوق قدرتها قدرة مائة رجل، ومائة حصان، شيدت عمائر أطلق عليهـا "المساكن الشعـبية"، أزهرت بينهـا الحدائق وأينعت الزهور، أما الشـارع فقـد سفلت، وغطي بالقـار الأسود، فبدا كمرآة سوداء يرى فـيها المرء وجهه، انعكست الأضواء النيون الجـديدة على الأسفلت، فكان يرى ممتدًا وكـأنه بحر كبـير، سـاكن الأمواج، كـانت فرحـتنا غامـرة، وسرورنا عظيم، تحـول الشارع إلى مدرسـة ليلية، منـطقتنا القـريبة محرومة من الكـهرباء، أعيننا الحادة البراقة أصـابها الإعياء

من لمبات الكيروسين، كانت فرصتنا للمذاكرة في ضوء الكهرباء، منا كان المجتهد، وفينا كان الكسول، أرض الشارع الجديد تفوق سبورة المدرسة صقلاً ولمعانًا، وبمصروفنا الضئيل نشتري أصابع الطباشير، ويجد الكسول كل الدروس أمامه على أرض الشارع فيذاكر دون عناء، كانت أرض الشارع على امتداد ثلاثة كيلومترات عبارة عن كراسة مفتوحة الصفحات لكل مراحل التعليم، من الابتدائية حتى الجامعة، ثانوي عام، تجاري، زراعي، الكليات النظرية والعملية، كان الشارع الجديد إلى جانب أنه جامعة في الهواء الطلق ملعبًا للكرة، مقسمًا على امتداده لشتى الفرق: "النجوم الثلاثة، الأسد المرعب، الهلال.. وغيرها". وفي المساء كان الشارع الجديد لتنسم الهواء، تمشي فيه الجماعات والأفراد يتنسمون الهواء النقي ويتحدثون، ويمزحون، ومع إظلام النهار تضاء أعمدة

الكهرباء وتبدأ المذاكرة، في الصيف حتى آذان الفجر، يذهب من اعتاد الصلاة للمسجد، وبعد الصلاة يبزغ ضوء النهار حثيثًا حثيثا، بعدها نعود إلى بيوتنا للاستعداد للمدرسة.

كنا معا - أنا وهو - ندرس الإعدادية، وإن اختلفت مدرستانا، إلا أن الصداقة جمعت بيننا ، والمنهج الدراسي، كان الشارع الجديد بالنسبة لي شارع النجاح، أما بالنسبة له فكان شارع الحب، تعرف إلى عائشة، رآها أول مرة بشرفتها بالطابق الثالث، وذات أمسية، كنا نتمشى، أشارت له، رد على إشارتها بإيماءة، قلت باسمًا:

- الله يسهل لك .

مضت أيام، اعتاد فيها أن يجرجرني للتمشي جيئة وذهابًا أمام شرفتها ، ارتدى أبهى حلة لديه أيامها ، وكانت موضة " البلزر ". الجاكت كحلي ، والبنطلون رمادي

فاتح ، واشتهر باسم محمد " بلزر " ، لفت نظرها دومًا ، وعرف ساكنو الليل بالشارع قصة الحب الوليدة بين محمد "بلزر" والبنت عائشة ، اتضح أنها أشارت للكثرة منهم ، بعضهم خاف ، وبعضهم عن إحجام تجاهل إشارتها ، وظهر محمد "بلزر" كالبطل المغوار وسط العديد من الفرسان .

ذات ليلة جاءني مشرق الوجه ، متورد الوجنتين ، باسم الثغر ، وكنت منهمكًا في حل مسألة رياضية على أرض الشارع ، انتحى بي جانبًا وقال :

ـ بعثت إليّ برسالة .

نسيت مسألتي ، سرت إلى جواره وكلي شوق إلى الكنز الذي يطوي يده عليه ، أخرج ورقة مطوية قدمها إليّ ، مددتها أمام عيني "من فضلك ؟ ماذا تريد مني ، مني أنا . . أنا ؟" كانت هذه هي الرسلة شكلاً ومضمونًا ،

غارت عيناي في قسمات وجـهه المرتعشة ، قلت في نفسي "إنها لعوب" ، نزعت نفسي من نفسي وقلت:

ـ ما أنت فاعل الآن ؟

ركل حجرًا صغيرًا بمقدمة حذائه وقال:

ـ لا أدري .

قلت:

ـ فلنعرض الأمر على رفيقنا صبحي ومحمود .

كـان صبـحي يجلس في ركن من أركان الحـديقة يعـد الشاي ، فهو المسئول الليلة عن مستلزمات السهر والمذاكرة، أحـضر لنا شطائر الـفول والجبن ، وكل أدوات الشـاي من سكر وأكواب وموقـد الكحول ، وإبريقًا مملوءًا بالماء. نادينا محمـود من زمرة طلبة الجامعـة واجتمعنا حـول صبحي ، وقمت بقراءة الرسالة .

قهقه صبحي منشرحًا ، ضرب محمد بقبضته وقال:

ـ يا بختك يا سيدي ، موعود بالهنا .

بينما قال محمود في حكمة الأكبر سنًا :

ـ أنا لو مكانك لا أهتم بها .

وحين نظر إليّ محمد يستطلع رأيي قلت :

ـ رد عليها كالآتي "لماذا أرسلت إليّ أنا . . أنا بالذات" .

صفعني صبحي بقوله :

ـ أنت بلا قلب ، دع الولد يحب ويسعد أوقاته . .

وتناول صبحي ورقة من كراسته ، وأخذ يكتب ، بينما نحن منهمكون في تحليل رسالتها الموجزة الملغمة ، قدم صبحي الورقة وقد كتب فيها أغنية "جواب" لمطرب مشهور ، وكان يحفظها عن ظهر قلب ، رفضها محمود على الفور ، وحبذها صبحي ، أما أنا فقلت :

ـ لندع الأمر لصاحب الشأن .

وقد كـان ، أرسل إليها محـمد الرسالة كمـا خطها قلم صبحي ، وانتظر في قلق الرد ، وجاء الرسـول وكانت فتاة تدعى وفاء .

كانت وفـاء فتاة رقـيقة ، هادئة ، جمـالها عادي غـير أخاذ، لكنها كانت تمتلك روحًا أشبه بأرواح الملائكة ، ولم لا ، وقد كانت المعـجزة التي تحدثت عنها منطقـتنا كلها ، ومن يسمع عـنها خارج المنطقـة لا يصدق ، مـرضت وفاء ذات يوم بالحـمى ، هزلت ، تسـاقط شـعـرها كله ، ولم تسلم وأعلن عن وفـاتها بالمستـشفى ، كان ذلك مـساء يوم خميس ، وضعت بمكان حـفظ الأجساد إلى حين دفنها يوم السبت ، ويشاء العلي القدير أن تدب فيـها الحياة من جديد وهم يخرجـون جسدها لإعداده لـلدفن ، جسد متـخشب كالجليد به أصابع تتحرك ، وصدر يعلو ويهبط في مشقة ، أجري سريعًـا اللازم لإنعاشها ، وبعـد أيام خرجت صلعاء

نحيفة كعود القصب ، وعـادت إلى البيت ، يومها أقسمت أمهـا أن تتركهـا تفعل ما تشـاء ، فالله الذي أحيـاها بعد موات هو حامـيها وحارسهـا ، ومنذ ذلك الحين انخرطت وفـاء وسط سـاكني الليل بالشـارع الجـديد من التـلاميـذ والطلبة .

قالت وفاء لمحمد:

ـ ستعطيك الرد غدًا وهي عائدة من المدرسة .

حـاول محـمد المزيد من التـفصـيلات ، وكـيف تلقت رسالته ؟ وما شعورها ؟ فهتفت به وفاء:

ـ دعني أذاكر يا محمد .

كانت بي رغـبة نحو وفاء، و لم أكن أدري أهي نتـاجًا للمعجزة التي أحاطت بها ، أم لعاطفة ما لا أقرها ، قلت لمحمد بعد انصرافها:

ـ سآتي معك غدًا .

مضى ليلنا كألف عام ، لا مذاكرة ، ولا قدرة على الاستيعاب ، نعود إلى رسالة عائشة وكأنها دكتوراه مقدمة إلينا ، كل منا متشبث برأيه الذي أبداه ، وكل يترقب الغد ليؤكد وجهة نظره .

خرجت من البيت صباحا ولم أذهب إلى المدرسة ، لأول مرة في حياتي ، أما محمد فقد كان معتادًا على "التزويغ" ، كان علينا أن نقضي فترة لا تقل عن خمس ساعات قبل الموعد ، اقترح محمد أن نذهب إلى السينما ، واقترحت أن نذهب إلى شاطئ النيل ، وأخيرًا استقر بنا المقام بمقهى قريب من مدرسة عائشة نلعب الطاولة .

حين جاء الموعد تركنا المقهى ، سرنا في الطريق ، لمحناها وزميلة أخرى لها ، أين وفاء ؟ اختفت ، أصابنا الاضطراب ، قلت على الفور :

ـ محمد لا تجازف بالتعرض لهما .

قال :

ـ أنا مع رأيك ، سنمشي خلفهما على مبعدة .

قرب محطة للأتوبيس تباطأت خطواتهما ، أبطأنا ، دخل أحد الأتوبيسات المحطة وازداد الهرج والمرج ، وإذ بزميلتها تقترب بسرعة، وتضع في يد محمد ورقة قائلة :

ـ احتفظ بها لنفسك .

دس محمد الورقة في جيبه ، استنشق الهواء في جشع ، ضحكت أساريره قبل أن يبتسم قائلاً :

ـ فلنقف هنا .

اختفت عائشة وزميلتها ، كأن ما حدث نسمة عابرة ، لم تعد تهمني رسالة عائشة ، قد يكون إحساسًا بأن الموضوع كله لا يهمني ، وقد يكون إحساسًا بأن قصة الحب بدأت ولا دخل لأحد على الإطلاق ، كل ما كان يشغل ذهني تخلف وفاء وكأن الموعد كان لي .

لم يخرج محمد الرسالة إلا في البيت ، وكأن حروفها من أثير خاف أن يتبدد بفعل تيارات الهواء ، أو كأنها كنز عثر عليه ويخشى أن يقاسمه فيه أحد ، وفي البيت ألقى بالرسالة في وجوهنا ، وقد حولت الدهشة وجهه إلى صفحة سوداء .

تناولها صبحي وفوجئ بخطه وأغنيته التي كتبها ، قال في غضب:

ـ بنت ملعب ، لا تحبك ، ولا ينبغي عليك أن تفكر في حبها .

وقال محمود:

ـ ملعونة ، كنت على حق حين طلبت إهمالها .

بعد برهة قلت:

ـ لو أرسلنا إليها كلماتي كان أفضل .

شعر محمد بخدوش ألمت بكرامته ، مزق الرسالة ،

وأشعل فيها النار ، صاح صبحي ضاحكًا :

ـ إنه خطي يا مغفل .

بدأت ستائر النسيان تسدل على القصة ، لكن ساكني الليل بالشارع يذكرونها كل ليلة ، امتنع محمد عن الظهور أمام شرفتها ، سواء متمشيًا قبل الغروب ، أو لاعبًا بالكرة بعد الظهر ، واتخذ لمذاكرته مكانًا بعيدًا عنها .

كنت معتادًا المرور على محمد في البيت قبل المدرسة وبعدها ، وفي أحد الأيام المتعاقبة مررت عليه أثناء عودتي وهالتني المفاجأة ، عائشة ووفاء في البيت ، كيف ؟ ولماذا؟ وماذا حدث ؟ كان الواقع مثيرًا لقفزات النبض بين ضلوعي، كان أبوه جالسًا يمازح عائشة ويقهقه ، ووفاء تشاركهما بالابتسام ، محمد لا يملك ولا يمتلك خلجة من خلجاته ، يروح ويجئ من وإلى الشرفة ، كأنه يخشى تظاهر ساكني الليل بالشارع احتجاجًا على ما يحدث ،

يخاف وكأن الدنيا كلها تعرف ، كل ما يقوله:

ـ هيا انصرفا يا وفاء لئلا يراكما أحد .

قالت وفاء متضايقة:

ـ طز ، جئنا وانتهى الأمر .

انتحيت به جانبًا وهمست:

ـ هي التي جاءت ، لا تهتم .

أخيرًا هدأ محمد واستكان على مقعد ، عائشة ووفاء يتناولان مشروبًا مثلجًا ، وأنا أنظر إلى وفاء وبيننا ابتسامة ممتدة .

كانت هذه الزيارة بداية ، بعدها التقينا نحن الأربعة ، ذهبنا إلى السينما مرة ، وقمنا بنزهة على شاطئ النيل مرة أخرى .

كانت عائشة تملك عينين برّاقتين ، فيهما لون النبت الأخضر في الحقول ، هما كل أدواتها في التعبير ، وفي

الانفعال، في الـصمت وفي الكلام، هما وحدهمـا يشعان الجمـال ويضفـيانه عـلى وجهـها، كان صـوتها لا يـفوق الهمس، ابتـسامتها اتسـاع حدقتيـها، دهشتهـا تحرك إنسان العين يمنـة ويسـرة ، كـان يمـكن أن تأسـرني لـو أتيح لي الانفراد بها بضع دقائق ، علـى العكس كانت وفاء، دائمة الحركة، سريعة الضحك، سريعة البكاء، مندفعة لا تهاب، تعبر عن انفعالاتها بالحركة والكلمة، دائمة الاعتزاز بشعرها الذي وصل خصرها .

أثناء نزهتنا على شـاطئ النيل اكتشـفت مدى اهتـمامي بوفاء، وأنه لم يكن سوى وازع إيماني بالمعجزة التي أحاطت بها، وما أن اقتربت منها وجدتهـا عادية كأي فتاة، وفتشت عن أية مشاعر نحوها فلم أجد غير الخواء .

ترعرعت قصـة الحب بين محمد "بلزر وعـائشة، عدت يومًا من المدرسة لألقاه سعيدًا، ينم وجهه عن فرحة غامرة،

تروي أساريره المنبسطة قصة لقاء، قلت ممازحا:

ـ هل كسبت البريمو ؟

هز رأسه علامة الموافقة .

أخذ يَقُصُّ عليّ ما كان في لقائهما، والأماكن التي ارتاداها معا، حكي عن الساعات التي مشياها على الأقدام، حتى خيل إليّ أنهما لم يتركا شارعا في العاصمة لم يمشيا فيه، واقتربت شفتيه من أذني هامسًا:

ـ قبلتها اليوم في السينما، لن أنسى رائحتها ما حييت.

ران علينا الصمت، أتخيل الصورة، وهو يحلم بلقاء آخر، وقبلة أخرى .

أهل علينا من بعيد أحد الأصدقاء يجري، صعد الدرجات قفزًا، كان الباب مواربًا دفعه ودخل كالصاعقة وهو يردد:

ـ عائشة انتحرت . . عائشة انتحرت . . عائشة

انتحرت.

نظرت إلى محمـد فوجدته يتهاوى متـراقصًا وكأن تحت قدميه زلزالاً عنيفًا، جلست ممسكًا بذراعيه وأنا أصيح:

ـ لا تقل إنها كانت معك . لا تقل إنك لقيتها .

ضاع الشـريط الذي استغـرق دقائق، وتوقف ذهني عن التفكير وضحيتي تتحرك، قمت مهرولاً:

ـ سلامتك يا ابنتي . . سلامتك .

نظرت إليّ، رأت الدمـوع في عـيني، تلفـتت حولهـا وقالت:

ـ أين صاحب السيارة ؟

جثوت على ركبتي قائلاً:

ـ أنا . هل أنت بخير ؟

قالت وهي تستوي جالسة:

ـ سامحني يا عم . سامحني .

قلت:

ـ أسألك أأنت بخير ؟

قالت:

ـ أرجوك سامحني . أنا ألقيت بنفسي لأتخلص من حياتي .

نظرت إلى الجميع من حولي، أسبلوا جميعًا عيونهم في خجل واستحياء، وبدأوا يتسللون واحدًا وراء الآخر، قلت وأنا أرفعها عن الأرض:

ـ سامحتك يا ابنتي .

ركنت السيارة بجانب الطوار، أجوب الشارع بعيني طولاً وعرضًا، لم يعد شارعًا للنجاح، ولا للحب، مئات النعوش الطائرة تنهب الأرض، تركل الإنسان كحجر وتفر هاربة، اسمه نار على علم، غير موجود بالمرة ـ رغم حيويته ـ على خريطة إدارة المرور، إنه الشارع الجديد الذي

تربى على أرضه الآلاف، وتعلموا، ونجحوا وأحبوا، وتزوجوا، إنه الشارع الذي كان جديدًا، عدت إلى ضحيتي التلميذة حين رأيتها تستند على إحدى زميلاتها:

ـ لماذا تنتحرين ؟

ـ زوجة أبي السبب .

قلت في نفسي: "رحمك الله يا عائشة" .

ركبت سيارتي وانصرفت .

جمعة محمد جمعة

عضو اتحاد الكتاب ـ نادي القصة ـ جمعية الأدباء ـ جمعية أنصار حقوق الإنسان ـ رابطة الأدب الحديث .

حصل على :

ـ جائزة مجمع اللغة العربية عام ١٩٧٥ عن قصة "قلب الأم" .

ـ جائزة نادي القصة عام ١٩٧٧ عن قصة " العدو تحت ضوء القمر " .

ـ جائزة محمود تيمور عام ١٩٩٣ عن مجموعة قصص "حياة رخيصة" .

ـ جائزة إحسان عبد القدوس عام ٩٣ - ١٩٩٤ عن رواية "المراهقون" .

صدر له :

- الأبيض والأسود	قصص	١٩٧٧
- قلب الأم	قصة	١٩٨٣
- مهزلة عائلية	مسرحية	١٩٨٧
- حياة رخيصة	قصص	١٩٩٢
- هي امرأة	قصص	١٩٩٤
- المراهقون	رواية	١٩٩٨

تحت الطبع :

- أهلاً يا عمدة	مسرحية
- المتعبون	رواية
- المحبون	رواية
- عبير الحلم	مسرحية
- شرخ في ليلة العمر	قصص

فهرس

إهداء ٥
عندما يعبر الفن عن قضايا الإنسان بقلم محمد جبريل .. ٧
مجهول الهوية ١٩
عصفور الحب ودائرة الموت ٣١
الغرق ٤٥
غيوم في السماء ٥٥
رعشة قلب ٦٧
السقوط من الدور العاشر ٧٩
دقات ساعة العمر ٨٩
الساعة ١٠١
الأيدي الدافئة ١١٥
ساكنو الليل بالشارع الجديد ١٢٧
فـــهـــرس ١٥٠